في اللهب ولا يحترق !

☆

عنوانه

وقع عند المرحوم « الرافعي » ، واستعيره ولكن في قصد غير قصده . عبّر هو به : عن راقصة كانت على رقصها ، ذات مكانة من فضيلة نفسها .. لأعبّر به عن رجل او رجال ، لا يعدون بيننا امرها فيا حملوا من امانة ، الا بأنهم ليسوا على حظ من فضيلة انفسهم .

ومع ذلك – ونحن الجائعين بهم – نطعمهم من قلوبنا لاننا نمنحهم من ثقتنا .. وهنا هنا قل معي ، الاحجية التي لا تفسّر الا باننا شعب مريض .. شعب لم يتعرف الى حقيقته بعد ، وان شمخ بانه استوعب في رأسه كل الحقائق .. فوجوده – مهما تخيل وتباذخ – لغو .

كمثله امرؤ يطلب الثروة ، فهكذا يتعرف على منابع النفط في كل مكان من الارض ، وهو بعد يجهل نبعاً – لو اراده – تحت قدميه .. فأمره مهما استوعب واحصى ، في فقر .

فمن الخير ان لا نكتب لهذا الشعب بعد اليوم نشكو اليه فما عبّر عن انه محل للشكوى ، بينما عبّر ويعبّر عن ان الشكوى انما كانت به .

كلنا نعرف ان الظاهرة الاولى للحياة ، انما هي في « ردود الفعل » .. وشعب يوطأ به كل موطىء ، ويسام الخسف على كل الوانه ، بل على شر الوانه ، ثم لا تصيب عنده ردة فعل ايجابية لكل هذا .. لا تقل لي عنه شعب حي ، لانك حينئذ تجدف على الحياة في ابسط قواعد الايمان بها .. ثم لا تقل لي في الشعب استياء مخامر ، فنحن نعرف ان ردة الفعل تجيء في عمقها على مقدار عمق الفعل نفسه .

يؤلمني ذلك ، ويؤلمني ايضاً ان اقوله .. ولكن يؤلمني اكثر فاكثر ان نشيد في الناس بكل ادلال الى انسانيتنا ، ونحن بعد لم نعرف الطريق الى الحياة ، وهي هي الاصل ، وهي هي القاعدة .

فأية انسانية اذن ؟ هذه الانسانية التي ندل بها ونرشح انفسنا لها ، وهي مركبة في حياة ممسوخة مشوهة .. قل لي : الا تكون مصدراً لتشويه انساني ، مصدراً لابطال حرارة المعاني الحق والقيم السامية .

من الاثم بعد اليوم ، ان نغرر بالشعب فنقول : كن انسانياً ، قبل ان نقول له : كن حياً ، كن جبروتاً ، كن قوى تتفجر ، ثم كن جرأة ، بل قحة تتحدى وتتنمر .. والا فانه سيخسر حتماً المعنيين ، ان يدرك حياة وان يظفر بانسانية .

قلت لصديق يوماً : فلان احترق .. فرد ساخراً :

اتظن ؟ .. ففي مجتمعنا هذا المخدّر ، من يحترق يضيء .. من يحترق ، باعجوبة كالسحر لا يحول رماداً .

بعد حادث الثقة* والزعم باسم الشعب ايضاً لا اريد ان افكر كثيراً .. لئلا تبطل وتنهار كل معاني لالفاظ في نفسي ، وانا اطل عليها من افق مجتمع لا أدري كيف اسمّيه .

عبدالله العلايلي

---

* بمناسبة جلسة الثقة في مجلس النواب اللبناني .

« الايدي الملوثة » لسارتر

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

هذه المسرحية* ، التي تمثل هذه الايام في ملعب انطوان بباريس، هي خير ما أنتج سارتر احكام صنعة فنية، وبراعة حوار، وابداع تسلسل. بيد أن هذا كله كان على حساب التضحية بالجانب الفكري الذي ظل يبز حتى الآن ما أبدعه من قصص وتمثيليات على السواء، فضلاً عما في موضوعها من ميل صاحبها في العهد الاخير الى معالجة أمور تتصل بالمشاكل العصرية الحية، والسياسية منها على وجه التخصيص، وهو ما يشاهد كذلك في المسرحيتين اللتين سبقتا هذه مباشرة: وهما «موتى بلا قبور» Morts sans sépulture و«العاهر المهيبة» La Putain Respectueuse، ففي الاولى عرض لموضوع المقاومة، وما تستلزمه من قيم تتصل بالالتزام (engagement) نحو الجماعة والرابطة العامة التي يندرج الفرد فيها، وفي الثانية تصوير أخاذ لتلك المشكلة الاليمة التي يندى لها جبين الانسانية، مشكلة معاملة الزنوج والشعوب الملونة عامة. ولهذا فليس لنا ان ننتظر من مسرحيتنا هذه تلك العبارات المنحوتة المليئة بالمفارقات في اغلب الاحيان مما نراه واضحاً في بقية قصص سارتر وتمثيلياته. واذا كان لنا ان ننشد فيها افكاراً، فلنلتمسها حية في اشخاص تجسدوها، وكانت فعالهم — اكثر من اقوالهم — خير تعبير عنها. وما من مراء في ان هذا النحو هو الاوفق انطباقاً على فن المسرح، بوصفه فناً خالصاً.

وخلاصة هذه المسرحية أنه حدث في بلد يغلب، على الظن انه من بلاد البلقان، أن كان فيه صراع بين فريقين من أبنائه: فريق — يتزعمه الوصي على العرش — يدعو الى التفاهم مع الدولة المحتلة (المانيا)، والآخر اشتراكي النزعة يقاوم منتظراً الخلاص لنفسه ولبلاده على يد الدولة المعادية لتلك الدولة المحتلة (روسيا)، وعلى رأسه هيدرر. فلما بدأ نجم الدولة المحتلة في الافول وبدأت الهزيمة تدب الى دولتها الزاحفة رأى الفريق الاول ان يدور مع الشمس فيترضى الدولة المعادية (روسيا). هنالك كان عليه ان يستجاب رضا الفريق الاشتراكي المعتمد على معونة الدولة المعادية والمؤتمر بأمرها، فعرض عليه التحالف معاً في وجه الدولة المحتلة. وهنا وقع الخلاف في الرأي بين ابناء الفريق الاشتراكي. فنفر رأى ان الظروف تدعو الى المسالمة في هذه اللحظة مع الفريق الآخر حتى يتم النصر للدولة المحالفة لحزبهم، وهنالك يكونون اصحاب الامر المطلق فيتحكمون في الآخرين كما يشاؤون، ونفر آخر يرى الخيانة كل الخيانة في هذه المسالمة، لانهم يرون ان الامر امر مبادىء، لا تحقيق منافع عملية او بلوغ قصد مادي محدود. والنفر الاول عقد لواءه لهيدرر Hoederer. لهذا رأى النفر الآخر انه لا بد من القضاء عليه حتى لا تقع تلك الخيانة، فعقدوا العزم على اغتياله، ووجدوا ان هذا الامر يمكن ان يوكل الى احدهم وهو هوجو Hugo، وان توجسوا منه خيفة لانه شاب نظري من رجال الفكر لا العمل، «لا همّ له الا اتخاذ مواقف خاصة»، ولانه بورجوازي لا يعمل الا اذا لذّ له العمل، ويهجر العمل من أجل نعم أو لا» (ص ٢٧) «وهو فوضوي، لكنه مع ذلك رجل يائس» كما نعته خصومه، أعني خلانه ورفقاؤه في الحزب، وهو في نظر نفسه «ليس من رجال النظر والفكر»، بل هو قد برم بالكتابة ويريد ان يقوم بأفعال، افعال رائعة فيها مخاطرة، وهو يريد ان يتحمل عبء مسئولية هائلة، الى درجة التضحية بحياته في سبيل انقاذ كرامته وعدم المساومة على مبادئه. وهو في نظر زوجه «طفل عاقل. لكن الاطفال العقلاء... هم أولئك الذين يتكون منهم ثوريون كأخطر ما يكون الثوريون. انهم لا يقولون شيئاً، ولا يختفون تحت المنضدة، ولا يأكلون من الحلوى الا حبة فحبة، بيد انهم يجعلون المجتمع يدفع ثمن هذا غالياً» (ص ٧٠).

صدر الامر الى هوجو اذن باغتيال هيدرر الزعيم الخائن في نظر اولئك النظريين المتطرفين الحالمين. فاحتال على الفرص حتى وجدها سانحة لما عرف ان هيدرر في حاجة الى شاب متزوج ليتخذ منه له كاتباً، وهو المتزوج وهو الشاب، فليعرض نفسه للعمل عند ذلك الزعيم الذي تولى حراسته، في مسكنه البعيد قليلاً عن العاصمة، رجال اشداء. ومضى عهد دون ان ينجز ما امر به، ورفاقه قلقون لان امر التحالف بين

* Jean-Paul Sartre : Les Mains sales. Paris 1948 وقد ظهرت اولاً في عددي مارس وابريل من مجلة «الازمنة الحديثة» Les Temps Modernes، ثم ظهرت في مجلد لدى الناشر جاليمار Gallimard. ويجب ان ننوه هنا ببراعة تمثيل فرانسوا برييه الذي مثل دور هوجو خير تمثيل، ولولا اشتغال هذا الفنان الشاب بالسينما لعد من مفاخر التمثيل المسرحي في العالم كله، بله في تاريخ المسرح في فرنسا، فقد كان الحركة كلها ولكن في غير تصنع او افراط، كما لا يفوتنا ان ننوه بفضل اندريه لوجيه André Luguet الذي مثل دور هيدرر فبرع في تصوير برودة ونزعته الواقعية ومكره السامي، وهو ينتسب الى اسرة لوجيه المشهورة في تاريخ المسرح الفرنسي.

الفريقين المتنابذين صار قاب قوسين او أدنى ، فحثوه على الانجاز ، وحثته كذلك زوجه اللعوب التي نراها على المسرح ترتدي زياً هو البدع الخاص بالوجوديين والوجوديات على السواء في باريس اليوم في مقاهي ومواخير سان جرمان دي بريه والحي اللاتيني . لكنه استمر يتردد ويماطل ، حتى طال به الزمن واستطال ، الى ان حدث ان دخل مكتب رئيسه هيدرر ذات يوم فوجده يقبّل زوجه . هنالك لم يتمالك نفسه فأطلق عليه عيارات نارية أردت هيدرر قتيلاً .

وهنا العقدة في المسرحية كلها : هل قتل هوجو هيدرر تنفيذاً لذلك الامر ، او غيرة على شرفه ؟ وفي هذا نجد في المسرحية عبارات بعضها في داخل الحوار ، وبعضها اشبه ما يكون بالحديث النفسي وان كان جواباً عن سؤال ، تدور حول هذه العقدة التي هي عصب التمثيلية كلها . فهو حيناً يقول : « لست انا القاتل ، انما الصدفة . . هي التي اطلقت ثلاث طلقات نارية » (ص ٢٤٥) ، ويستمر في بيان حقيقة فعل الانسان ، والى اي مدى هو مسئول عنه ، وتحت اي تأثير يخضع الانسان في فعله لما يصدر منه . « فالفعل يمضي بسرعة مفرطة . يصدر منك فجأة دون ان تعرف ما اذا كان ذلك لانك اردته او لانك لم تستطع امساكه » (ص ٣٤) نعم انه صدر اليه الامر من الحزب . لكنه حينما فعل ما فعل لم يفكر في هذا الامر « فلم يكن ثمت امر . اذ الامر يتركك وحدك ابتداء من لحظة معينة . لقد تخلف الامر عني بينما تقدمت انا وحدي وقتلت وحدي و . . لست اعلم بعد لماذا قتلت » (ص٢٢) . وهو حيناً آخر يستعرض رأي رفاقه في عمله ، وقد انحازوا من بعد الى الفريق الاول الذي حمل لواء دعوته هيدرر ، بعد ان كانوا يرون فيهم خونة ، لكنه النجاح العملي قد غشى على عيونهم فصاروا ينكرون فعلة هوجو وهم الذين امروه بها ! وبلغ بهم الامر حداً جعلهم يريدون اغتيال هوجو نفسه اذا لم يُخضع نزعته « النظرية الخيالية » ، « المتطرفة » ، « لحكمتهم الصائبة » هذه . لكن هوجو رجل مبادىء ، وهو لا يحفل بكل هذه المساومات الرخيصة التي تؤدي الى النجاح العملي في الحياة ، بل ينبذها ويحتقر كل من يلجأ اليها . فليفعلوا به اذن ما يشاؤون . هنالك تجلى له نبالة هيدرر القتيل ، لانه شهيد مبادىء آمن بها حقاً . ولهذا بدأ هوجو يحبه منذ تلك اللحظة التي رأى فيها من رفاقه ما رأى ، « فشخص مثل هيدرر لا يموت صدفة ، انما يموت في سبيل افكاره ، في سبيل سياسته ، انه مسئول عن موته . فاذا انا اعترفت بجريمتي على رؤوس الاشهاد ، واذا طالبت ان القب بلقب راسكولينكوف (وهو بطل رواية « الجريمة والعقاب » لدوستويفسكي ويرمز الى القاتل المتغلغل فيه طبع الاجرام ، لكن لاسباب فكرية روحية او مبادىء معينة) واذا قبلت ان ادفع الثمن الواجب اداؤه ، هنالك يكون هيدرر قد ظفر بالموت اللائق به » (ص ٢٥٩) .

ومن اجل هذا يرى هوجو أنه لم يقتل هيدرر (الحقيقي اي رمز الخيانة للمبادىء) بعد ، « لا ، لم اقتله بعد ، انما الآن فحسب سأغدو لقتله وقتل نفسي معه » (ص ٢٥٩) ويمضي هوجو قدماً ليلقى اولئك « الرفاق » الذين اصابهم « التعقل » والذين قرروا قتله ان لم يرضخ للتوجيه الجديد . فليقتلوه او ليقتلهم جميعاً ، فهو الحر الأبي الذي لا يقبل في المبادىء اية مساومة مهما تؤد اليه من نجاح عملي في الحياة . وتختم المسرحية بقوله بكل اباء : « لا ، لست قابلاً للاسترداد » (ص ٢٦٠) اي للانخراط في سلك هذه الجماعة بعد ان ضربت بالمبادىء عرض الحائط .

وفي هذا العرض الموجز يتبدى لنا لبّ المسرحية وهو الصراع بين الفرد المتوحد بمبادئه ، السخي في افعاله ، الابي في مواقفه ، وبين ما يسميهم سارتر باسم « الاثام » او « الاوغاد » Salauds فهؤلاء منافقون ، مشايعون للقاعدة العامة والعرف المألوف ، مساومون على مبادىء الشرف والكرامة في سبيل الظفر بنجاح مادي رخيص ، يسلكون حياة آلية رتيبة مطردة المجرى ، بحيث يمكن ان تستبدل اي واحد منهم بالآخر دون ان يتغير شيء ، لانهم يضربون جميعاً على قالب واحد ، ومثلهم مثل المصنوعات ذات الانتاج بالجملة . اما الشخص الفريد فهو ذلك الذي يعزف عن « شخصيته » ، اي عما هو قالب ثابت ، كيما يفسح المجال امام تلقائية الفعل وحرية الانبثاق وهو ذلك الذي يطّرح ما يسمونه « الواجبات » ، اعني تلك الاوامر التي تفرض على افكارنا وعواطفنا نظاماً صناعياً وتقسرنا على الدخول في قوالب تعسفية . وهو ذلك الذي يدع ذاته ومنطقها الخاص . وكما قال هوجو في هذه المسرحية : « اما الناس فلا يعنيني منهم ما هم ، بل ما يمكن ان يصيرونه » (ص٢١٢) .

وفي هذا توكيد لمعنى الحرية التي لا يحدها اي حد . فأفعالنا نفسها تنطلق من ذاتها دون ان يقهرها على ذلك ولا مجرد الباعث . فكل فعل هو مجاني تلقائي والوجود خال من الضرورة . والمهم هو الحدوث والامكان . ذلك ان « كل موجود يولد بلا سبب ، ويستطيل به العمر ضعفاً منه ، ويموت بمحض المصادفة » (سارتر : « القرف » La Nausée ص ١٩٣) . ومغزى هذه المسرحية كلها تتلخص في قول سان جوست Saint-Just « بنفس الاحجار تستطيع ان تبني للحرية معبداً او قبراً » .

عبد الرحمن بدوي

قارع الطبل

لادمندو دا اميتشي* Edmondo De Amicis ترجمها عن الايطالية : مصطفى آل عيال

●

في اليوم الاول لمعركة «كوستوز Custoza » ٢٤ تموز سنة ١٨٤٨ وكّل الى ستين جندياً من كتيبة المشاة في جيشنا، احتلال بيت منعزل على احدى الروابي.

وبغتة هاجمتهم فرقتان من الجنود النمساويين وامطرتهم بوابل من الرصاص من جميع الجهات. وبجهد جهيد تمكنوا من الوصول الى البيت، وما كادوا يلجونه حتى احكموا قفل الابواب من الداخل بسرعة بعد ان تركوا في الخارج بضعة جنود بين قتيل وجريح.

وضعوا وراء الابواب كل شيء تناولته ايديهم من اثاث البيت ومحتوياته، ثم تسابقوا سباقاً جنونياً الى شبابيك الطابق الارضي والطابق الذي فوقه وشرعوا يصلون المهاجمين ناراً حامية. اما هؤلاء فكانوا يتقدمون تدريجياً بشكل نصف دائرة ويردون على تلك النيران الحامية بنار مثلها او اشد منها. وعلى رأس الجنود الايطاليين الستين ملازمان شابان وقائد هرم طويل القامة نحيف الجسم عبوس وقور، وقد ابيض شعر رأسه وشارباه. وكان بين الجنود ولد في الرابعة عشرة من سنه من جزيرة سردينيا اسمر الوجه غائر العينين السوداوين ولكنهما تشعان بالبريق والحياة، كان قارع طبل يمشي وسط الصفوف.

وكان القائد يدير الدفاع من احدى غرف الطابق العلوي وكانت اوامره التي يقذفها بوجه جنوده كأنها طلق الرصاص الداوي. وما كان الناظر الى وجهه يتبين فيه اقل علامة من التأثر. اما قارع الطبل فكان وجهه مصفراً

ولكنه رابط الجأش وقد اراد مشاهدة المعركة عن كثب، فأتى بطاولة وصعد عليها واشرأب بعنقه وتمسك بالجدار ونظر خارج النافذة رأى من خلال الدخان الصاعد من الحقول في الاسفل الهبات البيضاء التي يرتديها الجنود النمساويون وهم يتقدمون ببطء وتمهل. وكان مركز البيت على قمة رابية شديدة الانحدار من ناحية حيث تطل عليها نافذة صغيرة ومن فوقها كوة تؤدي الى غرفة فوق السطح. ولم تكن هذه الجهة مهددة بالنمساويين. فليس بوسع احد ان يتسلق ذلك المنحدر، فكان الرصاص ينصب فقط على واجهة الدار والجناحين.

وكأن ابواب الجحيم قد فتحت. كان الرصاص كالمطر المنهمر، ما ترك جداراً من الخارج الا ومزقه. كانت قطع القرميد تتطاير في الفضاء ثم يهطل منها رذاذ على الارض فيغطيها بقشرة حمراء رقيقة. اما في الداخل فما ترك الرصاص شيئاً على حاله: شظايا الزجاج تتناثر في ارجاء الغرف، درف النوافذ الخشبية تتكسر، الاثاث يتحطم ويحترق، قطع من الطين تنفصل من السقف والجدران فتملأ الغرف غباراً ابيض يغزو العيون فيعميها. حركة متواصلة، صراخ، تأوهات، ضجة، قعقعة، ازيز، بلبلة، مما كان لا يترك لانسان راحة ولا تفكيراً ولا هدوءاً. وقد فقدت الرؤوس اتزانها وكادت العزائم تخور والنفوس تيأس. فمن حين لآخر كان بعض المدافعين من على النوافذ يتراجعون الى الوراء خطوة او خطوتين ثم يسقطون على الارض جثة هامدة فيسرع رفاقهم الى احتلال مراكزهم. وبعضهم يتراجعون وايديهم على جروحهم يطوفون من غرفة



* راجع الاديب عدد تشرين الثاني ١٩٦٨.

الى اخرى يتألمون ويتعذبون ويصرخون ويستنجدون وليس من منجد . وكانوا كالسكارى يترنحون وهم يقصدون المطبخ لان فيه بعض الهدوء . وحيث كانت جموعهم تتكاثر . ان جهنم وسعيرها لأخف على هؤلاء الجند مما هم فيه . اما في الخارج فان العدو كان يضيق نصف الدائرة التي يهاجم بجمسها . وقد رؤي قائدنا – وهو الذي بقي حتى الآن رابط الجأش – يظهر بعض علامات القلق ويخرج مسرعاً من غرفة المراقبة وقد لحق به الملازم الاول . وبعد ثلاث دقائق رجع هذا الاخير راكضاً ونادى قارع الطبل واشار له بأن يتبعه . فامتثل الولد لاوامره وتبعه راكضاً على درج خشبي ، ودخل بصحبته الى تلك الغرفة تحت السقف حيث رأى القائد يكتب بقلم من رصاص على ورقة وهو يستند بظهره الى النافذة وكان على الارض قرب قدميه حبل بئر .

طوى القائد الورقة وقال فجأة وبسرعة وهو يحدق في عيني الولد بعينيه الرماديتين الباردتين اللتين يرتجف امامهما الجنود كلهم .

– يا قارع الطبل !

وقف قارع الطبل وقفة عسكرية ورفع يده محيياً .

قال القائد : – هل انت شجاع ايها الولد – .

– اجل يا سيدي .

– انظر الى الاسفل . ! قال له القائد وهو يدفعه الى الشباك : في ذلك السهل قرب بيوت تلك القرية حيث ترى لمعان حراب ثم تجد جنودنا واقفين في مكانهم لا يتحركون . خذ هذه الرقعة وتمسك بهذا الحبل وانحدر من هذه النافذة والتهم بما لك من السرعة منحدر الرابية هذه ثم سر في الحقول دائماً بخط مستقيم واجتز العقبات قفزاً حتى تصل بين جنودنا ، وادفع بالرقعة التي تحملها الى اول ضابط تلتقي به ، والآن الق هذا الحزام والكيس من على ظهرك .

امتثل الولد لاوامر قائده بسرعة مدهشة ودس الرقعة في جيب داخلي من قميصه . وما كاد يرمي الملازم بالحبل الى الخارج ويمسك بالطرف الآخر حتى كان الولد يقفز الى النافذة ويساعده القائد على الخروج منها . كان ظهره الى الحقول الممتدة تحته .

– انتبه جيداً . ان انقاذ رجالنا متعلق بشجاعتك وبسرعة رجليك .

– ثق بي يا سيدي القائد ! اجابه الغلام وهو يتدلى الى الخارج .

– لا تنس بان تحنو ظهرك وانت تنحدر . – قال القائد ومد يده ليساعد الملازم .

– اطمئن الي .

– سر رعاك الله .

وبعد ان بلغ قارع الطبل الارض رفع الملازم الحبل وتوارى . واندفع القائد نحو النافذة وتطلع منها فرأى الغلام يكاد يطير وهو ينحدر . وكان يأمل بأن لا يراه العدو وهو يعدو كالظبي . ولكن سرعان ما خاب امله لما رأى بضع سحب من الغبار ترتفع من امام الغلام ومن ورائه مما دل على ان الجنود النمساويين قد رأوه وبدأوا يطلقون النار عليه من اعالي القمة التي كانوا مسيطرين عليها ، وما تلك السحب الا التراب والغبار التي كان يثيرها الرصاص ، اما قارع الطبل فقد كان جاداً في ركضه لا يلوي على شيء . وبغتة سقط على الارض دفعة واحدة .

– قتلوه ! زأر القائد وهو يعض على ناجذيه . وما كاد يلفظ هذه الكلمة حتى رأى الولد ينهض ثانية .

– آه ! لقد سقط فقط ، قال لنفسه متنفساً الصعداء ، وفعلاً ان قارع الطبل تابع سيره وضاعف ركضه ولكنه كان يعرج .

– زلة قدم بسيطة اظنها ، قال القائد مفكراً . ثم بدأت بعض السحب تتصاعد من كل جهة حول الغلام ولكنها بعيدة عنه ، لقد اصبح في مأمن منها . تنهد ارتياحاً وفرك يديه فركة المنتصر . ولم يفارق بانظاره الغلام وكان لا يزال قلقاً على مصيره . انها مسألة بضع دقائق ، فاذا لم يصل الى حيث ارسله في اقرب وقت ممكن وهو يحمل الرقعة التي ارسل يطلب فيها الغوث ، اما ان تقتل جميع جنوده ، او سيضطر ان يستسلم للعدو ويذهب اسيراً بصحبة جنوده .

كان الغلام يركض باقصى سرعته . تارة تتضاءل سرعته ويعرج . وطوراً يعود الى الركض ولكنه ركض ينم عن التعب الشديد ، وكان من حين لآخر يتعثر فيقف برهة من الزمن ليستريح .

– أتكون اصابته رصاصة اصابة خفيفة ؟ – فكر القائد وكان يلاحظه كل حركاته وهو يرتجف . كان يحمسه ويكلمه ويحضه على المضي كما لو انه يسمعه . كان لا ينفك يقيس تلك المسافة التي تفصل الغلام عن تلك الحراب اللامعة التي كان يراها هناك في السهل في وسط حقول القمح وقد لوحتها الشمس واصبحت بلون الذهب .

وكان ازيز الرصاص في الطابق الاسفل وصراخ الملازمين واعطائهم الاوامر وانين الجنود المجاريح وتهدم الجدران وتحطيم ما بقي من الاثاث كان ذلك لا يزال على اشده .

– هيا ايها الغلام اركض اركض . . . كان القائد يصرخ وهو

يرافق بنظراته قارع الطبل وقد اصبح بعيداً . – هيــا اسرع اركض . لعنة الله عليه ، لقد توقف عن المسير .. حسناً هــا هو يعود الى العَدْو .

وبينما هو كذلك اذ اتاه احد الملازمين وهو يلهث واخبره بان الاعداء لم ينقطعوا عن اطلاق الرصاص ومع ذلك فقد رفعوا خرقة بيضاء يلوحون بها ويطلبون اليهم ان يستسلموه .

– لا تجيبوهم ! صاح القائد دون ان يحول نظره عن النافذة حيث كان بأثر الغلام الذي اصبح الآن في السهل وقد توقف عن الركض وكان يلوح كأنه يجر رجليه جراً .

– ثكلتك امك ، اركض ، اسرع . تباً لك ايها الفسل . عجل . عجل . آه لقد جلس ، اف له .. كان لا يزال يرى رأس الولد عالياً من خلال سنابل القمح في الحقول . اما الآن فقــد اختفى فكأنه سقط على الارض ، ثم بعد برهة ظهر رأسه ثانية ثم عاد واختفى فجأة وراء سياج احد الحقول ولم يعد القائد يرى له اثراً .

حينئذ غادر النافذة وانحدر مسرعاً الى الطابق الذي تحته وكان الرصــاص كالمطر المنهمر ينفذ من كل مكان ، وكانت الغرف تعج بالجاريح . فــالبعض منهم كانوا يدورون حول انفسهم كالسكارى يتمسكون بكل ما تصل اليــه ايديهم ، والجدران والارض قد فرشت ببقع من الدماء . ووضعت جثث الموتى وراء الابواب كالمتاريس ، وقد اصابت رصاصة الملازم الاول في ذراعه فكسرتها . فالدخان المتصاعد والغبار المنتثر والضجيج المصم كلها تملأ ذاك المكان فتجعله شديد الوطء على كل من فيه .

– تشجعوا ايها الابطال ! صاح القائد ، مكانكم ، سيصلنا المدد صبراً ، قليلًا وستنتصرون .

كان النمساويون يقتربون اكثر فاكثر . وكانت وجوههم ترى من خلال الدخان ، وجوه وحوش ضارية ، كان صراخهم الشبيه بصراخ الحيوانات العجماء يفوق احياناً ازيز الرصاص ، كانوا يشتمون اولئك الجنود الشجعان ويأمرونهم بالاستسلام ، ويهددونهم ان لم يفعلوا بابادتهم عن بكرة ابيهم والتمثيل بجثثهم . خــاف بعض جنودنا وانسحبوا من النافذة الى الداخل . فدفعهم الملازمان الى مراكزهم ثانية . ومع كل هذا فقد بدأت نار الدفاع تخمد وتسرب الذعر الى قلوب الاكثرين ولاح ذلك في وجوههم ، واصبح من الصعب متابعة المقاومة . وفجأة همد ايضاً رصاص النمساويين وصوت كالرعد من الاسفل صاح اولا بالالمانية ثم بالايطالية :

– استسلموا .

– كلا ! اجابه القائد بصوت اشد من الصاعقة ، عندئذ عادت النيران من كلا الطرفين اشد مما كانت عليه . وسقط جنود آخرون ، واصبحت بعض النوافذ خالية منهم ، ان الساعة الرهيبة المقدرة لا مفر منها . كان القائد يصرخ ويصيح بصوت متقطع النبرات يخرج كفحيح الافعى من بين اسنانه :

– انهم لا يأتون ، انهم لا يأتون ، كان يركض من حجرة الى اخرى ومن نافذة الى ثانية ، شاهراً سيفه بيده المضطربة وقد عزم ان يموت كجنوده وهو يدافع عن آخر واحد منهم . وبينما هو كذلك اذ بالملازم الثاني ينزل من الغرفة التي على السطح ويصرخ بملء حنجرته صيحة دوى لها المكان : – لقد وصلوا .

– لقد وصلوا – ردد القائد بصوت شابه الفرح .

– لقد وصلوا . لقد وصلوا – ردد كل من سمع هذه العبارة ، حينئذ اهابت هذه الصيحة بالجميع فهبوا مجاريح واصحاء ضباطاً وجنوداً دفعة واحدة واستبقوا الى النوافذ واشتدت مقاومتهم اشتداداً لم يعرفه العدو من ذي قبل . وبرهة لوحظ شبه تردد وابتــدأ التفكك واللانظام في صفوف العدو ، وسرعان ما جمع القائد في الطابق الاسفل ثلة من اشد رجاله ليخرج بهم من البيت ويهاجم العدو بالسلاح الابيض . ثم طار الى الطابق الاعلى وما كاد يصل حتى سمع هو وجنوده وقع حوافر خيل مسرعة كالريح يرافق ذاك صيحة هائلة كانها خرجت من حنجرة واحدة . فتطلعوا من النوافذ فرأوا متجهاً صوبهم بين الدخان الكثيف، القبعات الطويلة الشكل التي يرتديها الشرطة الايطاليون الذين سرعان ما ترجلوا وزحفوا على بطونهم وايديهم على سيوفهم ثم شهروهــا وكان لها لمعان يخطف الابصار . كانت تدور في الهواء فوق الرؤوس خفيفة تحمل في حدها الموت الزؤام ، حينئذ هجمت ثلة الجنود التي اعدها القائد تتقدمهم حرابهم ونصالهم الحادة . رأى العدو كل هذا كلمح البصر فتزعزعت صفوفه وتفرقت حذائق وولت الادبار .

لقد خلت تلك السفوح منهم وانقــذ البيت بمن فيه وثم اتت فرقتان ايطاليتان من الرجالة ومعها مدفعان واحتلوا تلك الرابية .

اما القائد فقد انضم الى كتيبته هو ومن بقي معه من الجنود وحارب طيلة ذلك النهار وقد اصابته رصاصة في ذراعه اليسرى اثناء هجومه الاخير بالسلاح الابيض .

انتهى النهار بانتصار جنودنا .

***

في اليوم التالي ذهب القائد الى احد المستشفيات ليعالج ذراعه

اولاً ثم ليتفقد الملازم الاول الذي كُسرت ذراعه اليمنى .

حوّلت كنيسة القرية الى مستشفى وقد غص بالجرحى فادرجوا على صفين من الاسرة والفراش الموضوعة على الارض . كان طبيبان وبعض الممرضين لا يتوقفون لحظة جيئة وذهاباً وقد نحلت اجسامهم واصابها نصب شديد .

كان منظراً يفتت الاكباد : عويل . تألم . تأوه . انين . بكاء . حشرجة . ما كاد القائد يدخل حتى اجال طرفه فيما حوله علّه يعثر على الملازم الاول . وبينما هو كذلك اذ سمع صوتاً ضعيفاً قريباً جداً منه يناديه : — يا حضرة القائد .

التفت ، فرأى قارع الطبل .

كان ممدداً على فراش من القش فوق الواح خشبية تعلو بضعة اشبار عن الارض . مغطى الى ما فوق صدره باسجاف كانت فيما مضى لبعض النوافذ مزركشة بمربعات حمراء وبيضاء . وكانت ذراعاه فقط خارج الغطاء ، مصفر الوجه ضامره وقد غارت عيناه في وجهه ولم يبق منهما غير ذاك البريق واللمعان كأنهما جوهرتان سوداوان .

— أهذا هو انت هنا ؟ سأله القائد فجأة مندهشاً .

— نعماً لك لقد فعلت واجبك .

لقد فعلت ما كان بامكاني ان افعله — اجابه قارع الطبل .

— لقد جرحت أليس كذلك — قال له القائد وهو يفتش بعينيه عن الملازم بين الاسرة القريبة .

— وماذا تريدون غير ذلك ، قال الغلام وهو فخور بأن يجرح لاول مرة في سبيل وطنه ، والا لما كان يتجاسر على التفوه ولو بكلمة واحدة .

— لقد ركضت كثيراً منحني الظهر وسرعان ما رأوني ولو لم يصيبوني لكنت وصلت قبل الوقت بعشرين دقيقة . ولحسن الحظ التقيت حالاً بضابط من اركان الحرب فاسلمته الرقعة . كان المنحدر صعباً جداً . كنت انتظر من وقت لآخر ان اتعثر واتدهور واهبط دفعة واحدة الى الاسفل محطماً . وكاد العطش يهلكني . كنت اخشى ان لا اصل . كنت حانقاً على نفسي فبكيت . بكيت لاني كنت اعلم بأن في كل دقيقة من تأخيري موت جندي من جنودنا البواسل . كفى لقد فعلت ما كان بوسعي . اني مسرور . عفوك يا سيدي ارى الدماء تسيل على ثوبك من ذراعك .

وفعلاً كان الدم يسري من ذراعه المربوطة ربطاً غير محكم .

— أيسمح لي سيدي بان اشد له الرباط . عفوك لحظة ، مدوا الي ذراعكم . قدم القائد ذراعه اليسرى ومد يده اليمنى ليساعد الولد على فك العقدة وربطها ثانية . وما كاد الغلام ينهض قليلاً عن الوسادة حتى امتقع لونه واصفر وجهه واضطر الى طرح رأسه ثانية على الوسادة .

— حسبك ايها الغلام ! قال له القائد وهو يحدجه . ثم سحب يده وقد اراد الغلام ان يمسكها له : — عليك بنفسك . ولا تفكر باحد ، ان اتفه الاشياء لو أهملت لربما اصبحت مضرتها عظيمة جداً .

هز قارع الطبل رأسه هزات متوالية ولم يحر جواباً .

نظر اليه القائد طويلاً ثم قال له : — يلوح لي بانك فقدت دماً كثيراً والا لما كنت بهذا الضعف .

فابتسم الغلام وقال : — فقدت دماً كثيراً واي دم . انظروا ! وسحب الغطاء عنه دفعة واحدة .

تراجع القائد خطوة الى الوراء وكأن ذلك المنظر اخافه او بالاحرى ما كان لينتظر ان يرى ذلك . اصبح الغلام برجل واحدة . لقد قطعت له رجل الشمال من فوق الركبة وكان الفخذ ملفوفاً بالقطن والضماد ، ومع كل ذلك كان الدم لا ينقطع عن السيلان .

في هذه اللحظة مر بالقرب منهما طبيب عسكري قصير القامة ضخم البدن يلبس قميصاً ابيض . التفت الى القائد وقال له على عجل مشيراً الى قارع الطبل : — هذا حادث يؤسف له ، كان بالامكان ان تنقذ له رجله لو لم يتعبها بذاك الركض الجنوني ، التهاب سريع مما دفع الاطباء الى ان يقطعوها حالاً . ولكن لو رأيته . . . يا له من غلام شجاع ، لم تنحدر من عينيه حتى دمعة واحدة . ولم تخرج من بين شفتيه حتى نأمة . كنت فخوراً به كايطالي وانا اجري له العملية . اقسم لك بشرفي انه من دم نبيل . — قال هذا وتركهما بسرعة واختفى كما ظهر فجأة . زوّى القائد ما بين عينيه وحدج قارع الطبل الصغير ورفع له الغطاء الى اعلى صدره . ثم بحركة آلية وربما لم يشعر بها هو نفسه مد يده الى قبعته ورفعها .

— سيدي القائد ماذا تفعلون ؟ عفوكم اترفعون قبعتكم لي ؟ وحينئذ هتف هذا القائد الجندي الجاف ، الذي ما فاه قط بكلمة لينة الى من هم دونه ، بصوت عطوف لا يوصف يذوب حناناً ورقة :

— لست انا غير قائد جندي ، اما انت فبطل .

ثم فتح ذراعيه ورمى بنفسه على قارع الطبل الصغير وقبله ثلاث قبلات فوق قلبه .

مصطفى آل عيال

هنتزن

او مثل فنان كبير

بقلم اميل شوب - كوخ   ترجمة نديم صفر

●

يس المعلم اميل شوب – كوخ بالنكرة لدى نخبة الادباء اللبنانيين فهو مدير مجلة « برو آرتي » وعضو اكاديميات الفنون الجميلة في جنوا وبرشلونة وسيفيل وساراغوس وغرناطة وفالانس وفالادوليد وعضو اكاديمية العلوم في مودين وعضو اكاديمية كويمبرا وبيروجيا وليل الخ .. وقد ترجمت كتاباته الى جميع اللغات وفاز بتقدير عدد من اللبنانيين المعجبين باتساع تفكيره الشامل وبتفرد ابحاثه التحليلية وعمقها وبصحة معلوماته ووفرتها . ويسرنا ان نفتتح صفحتنا الفنية بهذا الدرس عن احد مشهوري المصورين السويسريين المعاصرين .

***

كلنا يعرف هؤلاء المصورين الذين حلموا باكتساب الشهرة دفعة واحدة . فمنهم من اتكل على الشذوذ لبلوغ غايته ، ومنهم – وهم الاكثرية – من عكف على العمل بصبر وانتباه وشغف مستنداً الى افكار كان يظنها صالحة ، سواء اكانت تلك الافكار خارجة على الكلاسيكية ام جاءت على اتفاق معها ، فاكسب عملهم التصوير الفرنسي اقصى زخارفه .

اما الجيل الجديد فقد اراد ان يغير كل ذلك وان يخلق روح طليعة يتسم بطابع العجلة متوخياً الجدة والتحذلق والابهاء فحذف – او اراد ان يحذف – فتون العمل الوجداني ، المتقن ، الناضج ظاهراً بمظهر الثائر على التقاليد ، فهبطت به مغامرته هذه الى درجة سحيقة من الانحطاط . هذا ما حدا بسليمي التفكير الى التوقف عند هذا الحد والرجوع الى الكلاسيكية الواقعية . ومن المعلوم ان هذه الواقعية هي ذاتها الابنة الثانية للتأثرية ، لان ابنتها البكر قد ماتت وهي لم تشب بعد عن الطوق . وبينما كانت هذه الاحداث تتوالى كان هنتزن قد بلغ فناً راسخاً معيناً ولكنه كان يعيش مستغرقاً في العمل الصابر ، باحثاً بلا انقطاع عن حقيقة مواهبه حتى ظهر اخيراً في الوقت المناسب الذي وصفناه . ما من احد يشك في كلاسيكية هنتزن ، الا انها تتميز بهذه الصفة الاساسية وهي كونها نتيجة تطور فن وثمرة انصباب على العمل لا سلسلة صور منقولة وتقليد مبتذل مستقى من دروس معلمين مكفولين . ان هنتزن الرسام الدقيق السيزاني قد استوحى في صوره زعماء التصوير التأثري ونخص منهم كلود مونه ورينوار ولكننا نخطئ اذا نحن ذهبنا الى انه قلدهم في فنه تقليداً مستسلماً اذ انهم لم يكونوا له سوى نقطة انطلاق في مضماره الشخصي ، ولم يبق له منهم اليوم الا كل ما من شأنه ان يجعل من شخصيته الفذة في الوقت الحاضر أحد زعماء الطبيعة المتعلقة ، المنسقة ، التي حبت التصوير الحديث باجمل لوحاته . يظهر هنتزن للملأ بهذه الوسائل التكنيكية كمصور ذي رؤية شخصية رفيعة ويبدو في تصويره للطبيعة كزعيم

اميل شوب كوخ تمثال نصفي للاين ياه - فان



الملاحة كما يراها ورنر هنترن

من زعماء المدى والنور بصفتهما مستقلين يشكلان العناصر الاساسية للوحة، ويبدو في رسومه كمصور خلقي له فهم بسيكولوجي عميق لنفسية من يرسمهم ، والدقة الفنية اللازمة لابلاغ هذا الحس الى نفوس المشاهدين. وبهذه المناسبة يجدر بنا ان نذكر له لوحات داخلية فاتنة واخرى طبيعية موفقة التركيب على الطريقة السيزانية.

من الفضول ان نتوخى في مقالتنا هذه درساً مفصلاً عن فن التصوير عند هنترن لان فنه هـذا قد اصبح معروفاً لدى السواد الاعظم من العامة وليست غايتنا منهـا سوى الدلالة فقط على اسباب نجاحه .

لقد عمل هنترن بلا كلل وخلق شخصيته بايمان وثبات. وبعد نظر ثم اظهر ذاته الملأ في الوقت الانسب من الوجهة البسيكولوجية لنجاحه . يضاف الى هذا ، الظروف الملائمة ، تلك التي اوجدتها

حرب عالمية مجتاحة اثارت عاصفة جنون على العالم فـاحجم هذا عاجلاً عن اندفاعه المتهور واستقر على تصوير واقعي ، متزن ، لا يهمل اية صيغة للجمال ولا اية وسيلة للبلوغ اليه حتى خمدت النزعة المدرسية ولا تزال في خمود مطرد . فنحـن نعيش اليوم في جو رحب من التساهل الجمالي الذي يمثله هنتزن اصدق تمثيل . غير ان هذا التساهل لا يمنعه عن فتح نوافذ مشرقة على هيئـات الخلائق والاشياء بالرغم من نزوعه بوجه عام الى فرض رؤيته المشعة عليها .

ان النور الخلاق الذي يغمر التلوين اللطيف الحاذق الذي تتلاعب به ريشة هنتزن الساحرة هو العنصر الاساسي في تكوين هذا الفن المتزن، وهذا النور هو الذي يوحي اليه بالرائعة ويحكم بها ويحول كل شيء بين انامله حسب ما يشاء ، حتى يدفع بنا الى ان نهتف مع الشاعر اللبناني : « ايتها الشمس ، يا ينبوع الحياة . » .

ان هنتزن ليجهل كل معالجة للمادة منفردة ويتحاشى التحكم الكيفي في الجمع ، فهو رجل الاسبـاب الكبرى والبسيطة معاً وذو الشعور المرهف الذي يثير فيه النموذج والمشهد رد فعـل له طابع موسيقي . ان هذه الموسيقى الداخلية العميقة لم تكن لتتمالك عن ان تهز منصة هنتزن هزاً عنيفاً لان هنتزن هو شاعر ومـن هؤلاء المصورين الذين تنحصر شاعريتهم في رأس ريشتهم . وهذه هي الطريقة المثلى للاحتفاظ بالكلاسيكية ، موطن الفن الخالد

ترجمة : نبيه صفر



ـ ابن هنتزن بريشة والده

في سبيل الحق وحده

بقلم مصطفى فروخ

ان اليوم الذي شرب فيه سقراط قدح السم ، كان في الواقع النذير الصامت بسقوط حضارة اثينا العظيمة. ونزيد الآن وقد انحسر الستر عن حقيقة العرب السياسية وغيرها، ان نرجع الى ما كنا كتبنا في الماضي ونادينا به من منابر الصحافة : ان الاصلاح يجب ان يبدأ من قلب الامة وليس من خارجها، وان الاصلاح الحق هو اصلاح النفس وتطهيرها من ادران الرذيلة والانانية الفردية والخيانة ، وليس الاصلاح في ترقيع الرداء وتزيين الثوب الخارجي . لقد ثبت بالبرهان لكل ملاحظ دقيق ان نهضتنا الحاضرة بدأت وشبت على الرياء والخديعة وتشبعت بالانانية والطمع الفردي، وان مظهرها هو غير باطنها وان الذين قاموا بها وتعهدوها منذ بدئها برعوا في فن الطلاء، واتقنوا الاخراج ، وثبت ايضاً وخاصة لمن قدر لهم السفر الى بلاد الناس، اننا نتقن دهن (الفرنيش) واننا اذا عد البارعون في هذه الصناعة جئنا في الطليعة . ولكن الامتحان كشاف وليس اعظم من الحوادث القاسية فاحصاً ومعلماً لمن يفهم ويدرك ويتعظ .

قلنا ان سنن النهضة معروفة ومبادىء البناء لا تتبدل ، وهذا شيء يعرفه رجال الاختصاص من اهل العلم والفكر الذين لا يؤخذون بالمظاهر ولا ينخدعون بالفورات الشعبية العابرة ، بل يراقبون ويدققون ثم يعدون المناهج الصحيحة للتوجيه والانشاء .

والباحث المدقق يلمس ان نهضتنا خلو من ارباب التخصص والتوجيه وليست في واقعها شاملة لعناصر التشييد الحق بل انها في جملتها مقتصرة على لون واحد من النشاط ، هو النشاط السياسي . وهذا ليس بكاف للقيام بنهضة قوية يطمئن لها المنطق السليم وترضى عنها سنن الحياة الحقة .

ان للنهضات مقومات جمة وعوامل عدة من الخير ان تتضافر جميعها لتأتي بالعمل الجدي ، وهذه العوامل كثيرة في طليعتها الفكر والتهذيب وتعهدها، لا سيا ونحن امة رضخت اجيالاً طوالاً تحت سلطان اجنبي ترك في نفوسنا كثيراً من السموم والامراض الخلقية والاجتماعية ؛ لذلك وجب على من بيدهم تسيير الامور ، توجيه الكثير من العناية لهذه الناحية والا جاء بناؤهم بغير اسس لا يلبث عند اول عاصفة تهب ان يهوي الى الحضيض .

ولست بحاجة لكثرة التدليل لبيان اهمية الفكر والتربية في دور الانشاء والبعث ومنها نبش تراثنا الادبي وما يتفرع عنه من ثقافة وتربية وفن ، لانه العنصر النابض الذي يرمز عن روح الامة وعن فكرها . ومتى كان روح الامة سليماً واعياً وعزيزاً مكرماً سهلت الطريق وأمن العثار .

ان ايماننا بحق الفكر والروح يجعلنا نلح في الدعوة الى الاهتمام بامر الفكر واحلاله المكانة اللائقة به في حياتنا الحاضرة ، اذا صح ان ندعي انه يمكن ان تكون هناك نهضة او حياة بغير فكر وروح . واننا سنتابع الصرخة تلو الصرخة في هذا السبيل ونحن نعلم اننا في ذلك نعبر عن شعور المؤمنين برسالة الفكر ومهمة التهذيب في حياتنا . اننا سنتابع الصرخات داوية حتى تبلغ مسامع العاملين الذين يدركون ان الفكر مقدس ويعلمون ان الدولة وزخارفها امر عابر ولكن آثار الفكر وحقه باقيان على الدهر .

وما هذا التهذيب الذي اتحدث عنه؟ وما هو هذا الفكر الذي اذكره ؟ وما فائدة ذلك ؟

التهذيب هو عدو الفوضى، هذه الفوضى السائدة بيننا والتي لن تبلغنا يوماً هدفنا بل ستقودنا حتماً الى الدمار . ان النظام – وهو وليد التهذيب وحده – كفيل بان يخلق منا امة منسجمة خليقة بالحياة . وعندما اذكر النظام الذي هو ربيب الجمال لا بد من ذكر اثره في النفس وما يخلق فيها من حب للنظام وتقدير لكل امر واحترام لكل عمل .

ان العمل الفني هو الذي يهيىء هذه التربية الجمالية كما قال في ذلك المربي الكبير (آلن Alain) : « ان مستقبل الامة يتوقف على التهذيب وهذا مرتبط بالتربية الفنية منذ الطفولة هذه التربية التي تهذب النفس وتنمي فيها قوة الملاحظة وحب الجمال » وبعد فاني اتساءل : كيف يمكن قيام عمل ما على اساس الفوضى ؟ ان الامة يجب ان تهذب وتحس وتعي ثم تنهض واني لامة ان تنهض وتعيش وحواس الجمال وما ينبعث عن فضائله من مزايا لا تزال غافية في نفسها ؟

نحن نعلم ان معاني الحياة وحدة لا تتجزأ لا سيا والجمال هو رأس هذه الوحدة وعنه يصدر سائر معانيها ولا يمكن ان تكون حياة اجتماعية انسانية صحيحة بغيره . ولو اننا تصفحنا حياة عظماء

الرجال الذين قاموا باعمال جليلة للعالم لوجدنا ان نفوسهم كانت تطفح بالجمال السامي، جمال النفس وجمال الروح لذلك عملوا للانسانية اشياء عظيمة وجميلة. اما اولئك الذين غاض في قلوبهم ماء الجمال وخلت نفوسهم من نعم هذا الجمال فلم يقدموا للعالم الا قبحاً وشراً، فهم كالشجرة الخبيثة لا تثمر الا خبثاً ولا تعطي الا قبحاً ولذلك قال افلاطون: «ان العمل المفيد هو العمل الجميل»

والآن نريد ان نقول، وقد بات القول الجلي واجباً محتماً على كل مواطن اعطي صدق الشعور بالواجب واعطي حسن النظر في حقائق الامور، ان يعلن بوضوح وقد انكشف الامر عن نتائج المداورات والاحابيل والتلفيق وعن اخفاق رجالها، ان يرجع بالعلاج الى ما رجعت اليه الامم في محنها وهو العمل في الحقلين الخلقي والتربوي، والى اصلاح النفس.

ان الامة التي بلغ من تربيتها الاجتماعية ان تظهر فرحها باطلاق الرصاص وغيره ثم تبدي غضبها وثورتها في البكاء والشكارة والهرب من المعركة فهي بحاجة الى تهذيب جديد وعقلية جديدة تسمح لها بالعيش مع العالم، وان هي ظلت على تفكيرها المتأخر فلا شك بان هذا العالم ايضاً سيلفظها من سجله لانها لا تنسجم معه ولا ينسجم معها.

لقد ادرك رجال الفكر في الغرب بعد الحرب الاخيرة ان الحضارة في خطر وان الازمة المستحكمة اليوم هي ازمة اخلاقية نفسية، لذلك راحوا يعالجونها عن طريق الفنون الرفيعة لانها وحدها تلطف من وحشية الانسان وتضعف من انانيته وجشعه وتربي فيه حب الجمال باوسع معانيه حتى يتصل بالمثل العليا حيث تتبدد فيه روح الشر وتتقلص منه روح الانانية الفردية والمادية البغيضة.

اما نحن هنا، وبعد كل ما اصابنا من نكبات يصعب وجود نعت لها، فلا يزال رجال السياسة ماضين في اساليبهم كأن شيئاً لم يحصل.

وقد اتى اليوم دور رجال الفكر ورجال التربية كي يقيموا البناء على اسس خلقية تبدأ بمعالجة النفس وتهذيبها عن طريق الثقافة الصحيحة وليست تلك الثقافة المزيفة المؤذية.

ان البناء على بقايا متلاشية عفنة نخر في معظمها السوس هو عمل فاسد لن تكتب له الحياة.

مصطفى فروخ

قلب الانسان

☆

من المجهد الساري في غبش الضباب؟ المثقل بأمانيه واوهامه واحزانه، اي اعتساف في حمله المرزح تشبث به وهو يغذ السير في مجاهل المعابر الزرقاء، دون رفيق او معين!!

وكلما تدحرجت عليه الصخور من حالق، وعصفت بثنائه الريح من كل جانب، وصبت عليه السماء صواعقها، وانفرجت الارض بأخاديدها واوحالها، وغمره الليل بجلباب الوحشة والهلع الاسود، رأيته انا بعين الوجود، يمسح العرق المتفطر من على جبهته العارمة، وعيناه تقدحان بشرر العزيمة الرهيب، ثم يرمي ما حوله بنظرة عابرة ساخرة، متحسساً موضعاً في صدره بحنان وحرص وثقة، ثم هو يمضي متحدراً الى غاياته، وعلى منكبيه حمله الثقيل من هموم واوهام واحلام.

***

بالامس، قمت الى المدينة في زحمة الوجوه الكادحة، بعد ان سئمت نفسي العزلة والوحشة، علني املأ جوانب روحي بأنس المجتمع، فاذا بتجارتي تنهار كساداً وخيبة، وبالأنس يتبدل ضيقاً وضجراً، وبالأمل يذوب مع جشع الناس وحقدهم، واذا بي التفت الى اغانيّ واشعاري، وكتبي واسفاري حنقاً مغيظاً احاول سحقها وتبديدها.

***

انأمل في قانون الناس ومذاهبهم، حبهم وبغضهم، ضعفهم وسطوتهم، فانتفض مذعوراً التهب بالثورة على كل ما عرفت وما لم اعرف، غير ان يداً ناعمة تمتد الى مكمن خفي في نفسي فيتحرك قلبي بلطف، ثم تتلاشى ثورتي شيئاً فشيئاً حتى يغمرني الرضا عن الحياة والناس.

واليوم، يقف هذا الجبار على رابية مشرئبة من روابي الزمان. ومعه سلاحه من مدافع وصواريخ، وعلل. ومعه سلاحه من جور، وخداع وحيل. ومعه سلاحه من فكر مبدع، وعقل منظم، وتجارب خصبة، ثم ينحدر الى السهل فيتعالى الانين والصراخ، ويشتد الويل والعويل، فتتحطم آمال، وتنهار مدنيات، ويذوب حلم جميل.

ضباب، ضباب على السفح المحزون المنهوك تسير الانسانية ثكلى مفجوعة، تندب ابناءها الصرعى وتراثها الموؤود، وحضارتها الحطيمة، متعثرة بدموعها وجراحها.

***

غير ان صوتاً يتعالى من بين هذه الجموع، يتموج مع النبضات والخفقات، تنساق صوبه الجموع الزاخرة الزاحفة، فتستلين جراحهم، وتغرورق عيونهم، وتنفتح جمة الاذرع المشوقة ايديهم، ذلك ان انسانا له قلب غني لهم، فأيقظ في حناياهم الاجنحة المغفية فتحركت الزهو والغناء، فتواكبت الجموع عاقدة الخناصر بنغم ورقص حيث الجبهة الثانية، فألقى هؤلاء سلاحهم، وفتحوا صدورهم واخذوا يرقصون.

حمص **علي محمد شلق**

في سماء غاندي

بقلم عبد اللطيف شرارة

☆

٤ ـ غاندي والمرأة*

أرأيت المرأة كيف تتصرف حين تقع في ازمة من الازمات؟ أرأيت الى اساليبها الشخصية الخاصة في ادارة عمل، او استقبال حادث، او توجيه شخصي؟ ارأيت الى قوتها النفسية الخارقة، الى عنادها المر، الى الحاحها في تحدي المصاعب حين تستهدف غاية من الغايات، او تروم غرضاً من الاغراض؟؟

— انها، في الاعم الاغلب من مواقفها، تأخذ القضايا بالرفق والاناة، وتواجه المشاكل التي تعترض سيرها نحو اهدافها، بصبر وتحفظ وحذر، ثم تستغرق، وهي بمعزل عن الاعين الساهرة والآذان المرهفة، في تبين العلل وملاحظة الظواهر وتأويل الحوادث، ولذا تجدها مستعدة ابداً ودائماً لاستئناف البحث، والاخذ والرد، والدفع والجذب، والجدل والمداورة دون ان تتنازل قيد شعرة من «نيتها» الراسبة الراسخة في اقصى ضميرها، تلك النية التي لا يدركها الآخرون، ولا يطمئنون، بحال من الاحوال، الى انهم مدركوها على حقيقتها، مهما فكروا وافترضوا واوغلوا في مجاهل الحسبان.

تلك هي طبيعة المرأة في علاقاتها الانسانية، فقد خلقت غامضة وستظل غامضة لكل من يراها من الخارج، ومن الخارج فحسب. اما هي فانها تنكر هذه النظرة، وتأبى ان تقرها، وتسخر ممن تأكدت له، واكدها في سلوكه معها، وتذهب الى اعتباره ابله، لانها تطل على نفسها، خلاف الرجل، من الداخل، وتعرف منها ما لا يعرفه هو، وتحس ما يجول في حناياها وما يضطرب في محيطها من الخواطر والعواطف والانفعالات، وتعرف اكثر مما تعرف ماضيها الذي عاشته وحدها، بيد انها لا تكشف بمحض ارادتها الاشياء التي تعرفها عن نفسها!!

والواقع ان المرأة ليست غامضة ولا هي بلغز، الا انها في تعبيراتها العامة عن روحها لم تلجأ يوماً من الايام، اذ ليس من طبيعتها ان تلجأ، الى «العنف». فالمرأة كانت، منذ وجدت، اي قبل غاندي بآلاف السنين، فيلسوفة اللاعنف، وكانت ولا تزال، تطبق هذه الفلسفة دون ان تبحث فيها او تضع لها صيغة نظرية.

احب، كي تستقيم لك هذه الفكرة وتبلغ قرارتها السحيقة، ان تتأمل سيرة فتاة او امرأة اصابها حيف واضح، او نالها الغير بظلامة قاسية من الظلامات — وما اكثر الامثلة على ذلك! — حيث تجد ان رد الفعل عند المرأة لا يتمثل بأعمال عنيفة تؤذي بها الظالم ايذاء مادياً مباشراً، وانما تقف في وجه الظلم لتدفعه بروحها، بمجرد روحها، كأن تتلقى الضربة بالصبر بغية احراج الضارب امام ضميره، او ان تضرب اضراباً تاماً عن التعاون مع الجاني فتبتعد عنه، او ان تفرض على نفسها اشياء من شأنها ان ترده الى صوابه كالجوع المقصود، او ان تثير عليه الرأي العام في محيطه، او ان تنتحر حين تضيق بها الحيلة.. فهذه كلها احوال، هي اساليب، تمرست بها المرأة، منذ القدم، لدفع العدوان، ونيل الحقوق. وقد وفقت، او كادت الى تحقيق ما تصبو اليه.

هنا، يلتقي غاندي مع المرأة، لا لقاء حب، ولا لقاء شوق، ولا لقاء تعاطف، وانما لقاء وحدة بالروح، فاذا هي هو، واذا هو هي في كل ما فكر وابدع وانشأ واقام، حتى لتحسب ان غاندي روح امرأة حلت في جسد رجل، واثارت في ذلك الهيكل الناحل

---

* راجع «الاديب» اعداد اذار، نيسان، ونوار ١٩٦٨.

عاصفة من «التمرد» ما انفكت تشتد وتشتد الى ان قضى نحبه صريع الرصاص، لا صريع الاعياء، على رغم السبعين وما زاد على السبعين!

ولكن، ما هي هذه الوحدة الروحية بين المرأة وغاندي؟ الانهما سلكا سبيل «اللاعنف» كانا وحدة، ام تلك نتيجة لمقدمات نجهلها؟.

— الظاهر ان الهند لم تعرف في تاريخهـا الاجتماعي خلافاً بين المرأة والرجل، من حيث الواجبات والحقوق، فليست هنـاك مشكلة مساواة، وانما كانت قضية توحيد بينهما، حاول الفلاسفة والمفكرون ان يجدوا لها الحل العملي بعدان اتضحت لهم خطوطها الفكرية الدقيقة* والعقدة ليست قانونية يضطرب لهـا العقل القضائي، وانما كانت فلسفية خالصة، على المرأة ان تجد لها الحل المعقول من جانبها كما على الرجل ان يجد لها حلها المعقول من جانبه، لتتألف الوحدة منهما، كما تأتلف اللغة والفكرة، والحـاسة والعقل الخ . .

واذا علمت ان غاندي كان يمثل التراث الهندي في ارقى مبادئه، وانه كان يسعى بكل ما اوتي من نفوذ وسلطان الى بعث الروح الهندية الاصيلة، وانه كان يطبق ما يؤمن بفائدته وصحته من عقائد وافكار، ادركت كيف اتحد بالمرأة ذلك الاتحاد الروحي العجيب.

ولكن الاتحاد، مطلق اتحاد، بين كائنين انسانيين، لا يتم الا اذا كان ثمة ما يوحدهما ويصهرهما في بوتقة واحدة، ويوجهها وجهة واحدة، سواء كان توحدهما سلبياً ام ايجابياً. فكل اثنين يشتركان في بغض شخص اوحالة او مبدأ يؤلفان وحدة، وكذلك الامر، حين يشتركان في حب لموضوع واحد، اي انه لا بد — بتعبير آخر — من عامل ذاتي مشترك، يخلق التجاذب بين طرفين ويقربهما من بعضهما، ولا يزال يقربهما الى ان يتحدا . . غير ان الاتحاد السلبي احط في سُلّم القيم من الاتحاد الايجابي، بمعنى ان اللذين يجمعهما حب الوطن مثلاً، ارقى من اللذين يجتمعان في بغض وطن آخر، واللذين يتحدان لدفع ظلامة، ارقى ممن يتعاونان على ظلامة، وهلم جراً.

نستطيع الآن ان نلقي هذه الاسئلة: «ما هي العوامل التي تجعل من غاندي والمرأة وحدة روحية؟ ثم ما نوع هذه الوحدة: اسلبية هي ام ايجابية؟ وما كان اثرها في غاندي نفسه وفي بيئته؟

— ابرز ما في المرأة، في كيانها النفسي، في حياتها، في سيرتها العامة ظاهرتان: الميل الى الالم، الى العذاب، والاضطلاع بالحب، بالجانب النيري من النفس البشرية.

تقول الدكتورة جينا لومبروزو الايطالية، وهي من ارقى سيدات هذا العصر، في كتابها التحليلي الرائع* ما يلي: «حقل الالم هو الميدان الذي تخوض فيه المرأة معركة حياتها، فاذا راحت تبحث كالرجل، عما يجنبها الانفعالات المؤلمة، غيّضت بيدها معين ثقافتها العاطفية، لانها مدعوة هنا، وهنا على الاخص، للعمل، لاظهار مواهبها وعبقريتها، ولان الانفعالات المؤلمة هي اعمق الينابيع واكثرها تنوعاً وغزارة، فمنها وحدها تستقي المرأة معارفها من كل جنس ولون».

وجاء في يوميات ماري بشكيرتسف: «الاوصاب والاحزان هي ذاتها افراحنا، فعلينا ان نتقبلها على انها العناصر الضرورية للحياة».

وتذهب ماري لينيرو هـذا المذهب، ولكن على شكل اوضح واقرب الى القلب حيث تقول: «احب مـا كان حزيناً، لاني احب الالم، وانمـا احبه لاني اتعذب به واتألم من اجله، والانسان لا يتألم الا عند مـا يحب، وهو لا يكون شيئاً الا اذا احب. ولذا، كانت الذكريات الحزينة عزيزة علي، بل هي اعز من الذكريات المفرحة*.»

وللحياة في نظر غاندي دعامتان لا تقوم الا عليهما وهمـا: الحب والعذاب، وهو لا يواجه الامر من زاوية ادبية، كمـا هي الحال عند المرأة، وانما يأخذه بالنظر العلمي الصرف، الخالص من شوائب الانفعال: «نحن كلنا مرتبطون برباط الحب، فـان في جميع الاشياء قوة مركزية لولاها لما كان كائن. يحدثنا رجال العلم ان قوة التماسك Force de cohésion هي التي تشد الذرات الى بعضها، فاذا امحت تلك القوة تحولت الارض الى قطع مفتتة، وانبتت بنا الحياة. وكما اوجدت هذه القوة في الطبيعة الموات، فقد اوجدت ايضاً في الكائنات الحية. وقوة التماسك في الكائنات الحية هي

* هذا ما جاء في احد كتبهم المقدسة عن الرجل والمرأة: «هي لغة وهو فكرة. هي فطنة وهو قانون. هي حاسة وهو عقل. هي واجب وهو حق. هي عمل وهو مؤلف. هي سلام وهو صبر. هي أمنية وهو ارادة. هي رحمة وهو هبة. هي نبرة وهو النشيد. هي الوقود وهو النار. هي المجد وهو الشمس. هي الحركة وهو الريح. هي الثروة وهو المالك. هو المعركة وهي القوة. هو الفانوس وهي النور. هو العدل وهي الرأفة. هو النهار وهي الليل. هو المجرى وهي النهر. هي الجبال وهو القوة. هي الروح وهو البدن.»

* L'âme de la femme par Gina Lombroso, traduit de l'italien par François Le Hénaff P. 111.

* يكاد الادب النسائي العربي يجري كله ايضا في مجرى واحد هو «العذاب» من شاعرات العصر الجاهلي، ماراً بالخنساء الى ان يصل للآنسة نازك الملائكة في يومنا هذا.

الحب ، فحيث وجد الحب وجدت الحياة ، اما البغض فانه يسوق الى الخراب ».

وهذا شأنه في موضوع العذاب : « ما من بلد نهض وارتقى دون ان تطهره نيران العذاب ، فعلى الحبة ان تهلك كي ينبت منها القمح . الحياة تخرج من الموت . وهـل للهند ان تخرج من الرق والعبودية دون ان تطيع القانون الابدي : تعذب فتطهر ؟ ! ».

وفي مقام آخر : « التقدم معلق على كمية الالم الذي تقـاسيه الضحية . كلما كان الالم طاهراً ، كان التقدم اعظم ! » .

أرأيت كيف اتحد غاندي بالمرأة ، واين اتحدا على غير عـلم منهما؟ لقد وحدهما اشتراكهما في الحب، وميلهما للعذاب ! وكلاهما انتهيا الى اللاعنف في نيل الحق والوصول الى العدالة ، كل في حيز مطامحه واطار وجوده .

فاذا جئت الآن تدرس حياة غاندي اليومية تجد المرأة القسط الاكبر في تكوينه الروحي ، في نشاطه ، في لمعـان نجمه وذيوع صيته ، وتجد انه اعتمد على المرأة اكثر ما اعتمد في تطبيق مبادئه واخراجها من عـالم الفكر الى ميدان العمل ، حتى لتحسب ان غاندي « بضاعة نسائية » خرجت من معمل نسائي وراجت اول ما راجت عند النساء ، الى ان طغت على السوق الروحي ، ومن ثمة فرضت نفسها على العالم كله .

تأمل هذا التأييد المطلق ، وهذا الاعجاب ، وهذه الخدمات الجلى التي نالها غاندي من نساء الارض قاطبة تدرك مدى انسجامه كروح مع روح الانوثة ، فقد كان ، وهو في لندن مقرباً الى النساء اللواتي يحطنه بحنو ، وكن يولينه من العطف والرعاية ما لم يحلم به ، حتى اذا جاء الى افريقيا الجنوبية وبدأ يمارس رسالته الاصلاحية الاجتماعية كان النساء اول المجندات لخدمتها ، ومنهن من قضت شهيدة في طاعته* ولما عاد الى الهند وتزعم الحركة الوطنية فيها اقبل النساء عليه يحطنه بالتأييد ويمددنه بالعزم مما اضطر الحكومة الى سجن قسم كبير منهن في مختلف الادوار التي مرت بها حركته يوم قاطع السلطة ودعا الى اللاتعاون ، وكان يومئذ مسروراً بهذه الظاهرة اذ كتب في صحيفة « الهند الفتاة » هذه الفقرة التي اقتطفهـا من مقال طويل : « كنت آمـل ان توفر السلطة النساء على الاقل ، وان تحرمهن شرف السجن ، فقد كان معلوماً لديها ان العصيـان المدني لا يحمل سمة عدائية ، ولكن حكومة البنغال لا تفرق ، في حماستها للقانون ، بين الجنسين فأولت هذا الشرف ثلاث نساء من كلكوتا . ارجو ان تستقبل البلاد هذا التجديد بكل سرور ، فان على النساء ان يقمن بقسطهن كالرجال ، في تحقيق الاستقلال » .

ذلك في اطار الجهود المحلية والقومية ، فاذا انتقلت الى محيط الفكر الانساني العـام ، وجدت النساء ايضاً وايضاً هن اللواتي تطوعن لنصرة غاندي ونشر مبادئه ، فقد كتبت الآنسة إيليني ساميوس — وهي فتاة يونانية — « حياة غاندي القدسية » وترجمت السيدة هيلين هارت مقالاته في جريدة « الهند الفتاة » الى الافرنسية كما عنيت الآنسة جورجيت كاميل بترجمة سيرة حياته التي كتبها بيده الى الافرنسية ايضاً . امـا الانكليزيات اللواتي اشتركن في خدمته واعتنقن رسالته وتتلمذن له فانهن كثيرات لا يتسع المجال لذكرهن ووصف ما قمن به في سبيله .

وليس في هذا الاعجاب الشديد من قبل النساء بغاندي مـا يدعو الى الدهشة والاستغراب فقد رأيناهن يحتضـن الحركة المسيحية ويتبنينها بجرأة وحماسة هائلتين ، فالقديسات فيها اكثر من القديسين ، والشهيدات دونها اضعاف اضعاف الشهداء ، حتى لتجد اجماعاً عند الباحثين في تاريخ النصرانية عـلى ان « المسيح فتح العالم بالنساء ، وبالنساء فحسب »[1] .

وكذلك هي الحال مع الرسول العربي محمد ، فالمرأة هي التي اكتشفته قبـل ان يبعث نبياً ، وهي التي آوته ونصرته وكانت تمده بالعزم والقوة كلما وقع في مأزق ، او اضطربت به الايام في حادث ، فهو مدين لها ، الى حد بعيد ، بنشاطه وصبره وبطولته في كثير من المواقف[2] .

هكذا ، نجد ان قيمة المرأة في حياة الرجال العظام ليست مما يمكن اغفـاله ، حتى ولا يمكن تقديره ولا فرق بين ان يكون العظيم رجل فكر او علم او ادب او دين .

ولقد ضربت سيرة غاندي مثلاً عـلى هذه الحقيقة يبلغ من النصاعة والقوة درجة لا قبل لاحد بانكاره او اضعاف اثره .

ايفيد نساؤنا من ذلك ؟؟ او لا . هل يدرك الرجال ؟ ؟

عبد اللطيف شرارة

* يلح غاندي في كتابه « تجاربي في البحث عن الحقيقة » على قرائه ان يحفظوا اسم الآنسة « فاليا ما » وهي فتاة سجنتها السلطة الانكليزية مع من سجنت ، وماتت يومئذ لانها اصرت على اتبـاع غاندي ومسايرة حركاته التحريرية .

(١) راجع الموسوعة الافرنسية الكبرى مادة Femme .

(٢) أجمع مؤرخو السيرة النبوية على ان خديجة بنت خويلد هي التي كاشفت الرسول بحبها وانها هي التي امنته اول ما نزل عليه الوحي .

الدروس العربية في ايطاليا

بقلم المستشرق الايطالي فرنشسكو جبريلي

☆

سيداتي وسادتي : دعوني* استميحكم عذراً لأجنبي يتحدث بلغتكم دون ان يتاح له ابداً طول الاقامة في بلادكم ، فلا هو تمرن على لغة الحديث ولا هو تمرس بلغة الكتابة، وكلا الامرين لازم لتقصير المسافات بين الناس . على ان محدثكم ليس بغريب بينكم قلباً وان كان غريباً عنكم ولادة ولغة، لانه منذ زمان شعر بما شعر به الشاعر القديم Jaufrè Rudel من اشتياق ونزوع الى « ارض قاصية » وهذه الارض ان هي الا ارضكم ، ارض العروبة ، التي بذل في سبيل درس ثقافتها وتاريخها كل جهوده منذ الصبا . اما لبنان وبيروت بنوع خاص فقد تعرف اليهما منذ ايام التلمذة على صفحات «المشرق» . ولا تزال بيروت ولبنان لها في ذكرياته حتى اليوم وقع اللقاء الاول الذي تجلى له فيه وجه العروبة العزيز .

بودي ان احدثكم اليوم عما بعثته لغتكم وثقافتكم في ايطالية من ميل الى الدرس، وان احدثكم عن الايطاليين العظام الذين انصرفوا وينصرفون الى البحث في العربية، وعن المؤسسات والمآثر التي تجسد فيها هذا الميل . اجل ان يتناول الحديث الا نخبة من رجال الثقافة قليلة العدد في ايطالية ، مثلها في سائر البلدان الاوربية . ولكنها نخبة ضمت وجوهاً من وجوه العلم فذة، ذاعت شهرتها بحق في العالم العربي نفسه وضمنت لبلادها مركزاً من المراكز الاولى في تاريخ الاستشراق . وقد نوه العلامة والنقاد المصري الشهير طه حسين – تنويهاً مشبعاً بالحب والاجلال – بفضل الاساتذة الايطاليين – اساتذة نفسه على حد قوله – الذين تتردد اسماؤهم محاطة بهالة من الاحترام والاعجاب حيثما سمعت رنة لغة الضاد : اساتذة من امثال Santillana, Nallino,Ignazio,Guidi وبعزمي اليوم ان اشفع ذكر هؤلاء النوابغ المشهورين بذكر بعض شخصيات اخرى من مستشرقينا ليس لهم ما لمن ذكرت من صيت عريض لقلة اتصالهم بالعالم العربي الحاضر وان كانوا هم ايضاً من الكواكب الساطعة في سماء الاستعراب .

ان الابحاث الاستشراقية عندنا ترقى الى عهد النهضة الايطالية في القرن السادس عشر بل لها جذور تبلغ العصور الوسطى وان هدفت عهد ذاك الى مرام دينية رسولية اكثر مما هي علمية، لكنها لم تبلغ درجة رفيعة الا في النصف الثاني من القرن الماضي فكانت سمتها حتى تلك الحقبة جمع المعلومات اكثر مما نسميه علماً حقيقياً . ومن اشهر المنصرفين اليها في القرن السابع عشر Marracci ناشر القرآن وناقله الى اللاتينية . وفي اوائل التاسع عشر Ludovico Rampoldi صاحب الـ Annali Musulmani وممهد السبيل لـ Caetani العظيم وما ان انصرف الى الدروس العربية رجال من امثال Michele Amari و I. Guidi حتى اخذت هذه الدروس باساليب العلم الحديث وتقدمت على سبيله اشواطاً بعيدة . وانني لن اتوقف طويلاً عند Guidi اذ لا يخفى عليكم مكانه من العلم الراسخ القدم في عالم الشرق والاستشراق على السواء بل اقول كلمة في Amari ، وقد لا تعرفون منه غير الاسم، وان كان من اجلّ الناس عندنا ، لانه جمع بين العلم والعمل في ايام نهضة ايطاليا السياسية اي في عصر Risorgimento، ولد Michele Amari في جزيرة صقلية في اوائل القرن الماضي ، الجزيرة الايطالية الجميلة والتي ظلت سحابة قرنين تدخل ضمن «دار الاسلام» ولم تزل العربية فيها قرنا ثالثاً لغة التحدث والكتابة ينظم فيها الشعر وترسم بها الكتابات على قصور الملوك النصارى، انفسهم كما تشهد به حتى الآن بعض الآثار الباقية في مدينة (بلرمه) عاصمة صقلية . وقد دفع Amari حب الوطن فضلاً عن الاستطلاع العلمي الى درس هذا العهد البعيد المجهول من تاريخ بلاده . وان مؤلفه العظيم « تاريخ مسلمي صقلية » الذي جُدد طبعه اخيراً بمزيد من التعليقات لمن ابرز آثار القرن التاسع عشر ليس في علم الاستشراق فحسب بل في علم التاريخ عامة . ولئن لم يتطرق Amari الى غير التاريخ العربي الصقلي فانه اصبح حجة في هذا الباب وقلما زاد عليه المحدثون .

قلت ان Amari جمع بين العلم والعمل ومن اجلّ مآثره تنظيم الدروس الشرقية في ايطالية يوم تولى وزارة المعارف بعد اتحاد وطننا فقد اسس مدارس وكراسي مختلفة للدروس الشرقية لم تبق جميعها السوء الطالع الى ايامنا هذه، حسبنا ان نذكر منها مدرسة فلورنسة المزدهرة في اواخر القرن التاسع عشر التي علم فيها Amari وفيها مات والتي ضمت قبل تلاشيها فروعاً للعربية والسنسكرتية والعبرية ولغات الشرق الاقصى .

وان اقتصر Amari على درس علاقات العرب بجزيرته فقد

* محاضرة ألقيت ضمن سلسلة محاضرات لجنة شهر اليونسكو ببيروت .

اول المؤرخ الايطالي الثاني الكبير Leone Caetani التاريخ الاسلامي القديم برمته : وقد كان له فيه من سعة الاطلاع وسعة النظر ما لم يفقه وربما لم يبلغه غيره بعده . وليس في الشرق من يجهل اسم الامير Caetani وقد عرفه الى الشرقيين الاستاذ محمد كرد علي في كتابه المفيد « غرائب الغرب » ذاكراً باعجاب اعراضه – وهو امير مثرٍ ذو مال وضياع – عن لهو امثاله من الاغنياء، وانقطاعه للبحث العلمي الخالد اسمه الكريم . وان مؤلفه Annali dell'Islam الذي نشرت منه عشرة مجلدات ضخمة في العقود الاولى من هذا القرن لهو اكمل وادق مجموعة لما بلغ الينا من الاخبار عن صدر الاسلام عن الرسول محمد والخلفاء الراشدين (اذ لم يجاوز المؤلف خلافة علي) ترجمها وحللها وعلق عليها وخصها بنظرات نقدية شاملة واستطرادات علمية هامة فقد كانت فتوح العرب في نظره آخر موجة من موجات الشعوب السامية الزاحفة في العالم القديم، بيد انه قد استرعى انتباهه في هذا الزحف ما انطوى عليه من قوى سياسية واجتماعية واقتصادية ولم يقدر حق تقديره (شأن سائر مؤرخي عصره) العامل الديني نفسه . ولا شك انه بوسعنا اليوم ان نمعن النظر فيما فاته فنكمل ما نقص في نظره من تقدير هذا العامل الى ما استنبطه Caetani نفسه من تأثير العوامل السياسية والاقتصادية . وقد نبغ Caetani في تحليل الشخصيات العظمى من الصحابة والخلفاء كابي بكر وعمر وعثمان وعلي وان فاته شخصية الرسول كما قلنا من قلة استعداده لتقدير العوامل الدينية .

على ان تحرر Caetani من كل نزعة دينية لم يحل دون مصادقته العرب ، صادقة خالصة عميقة جلبت عليه نقمة اهل وطنه يوم لم يرض عن احتلال ايطاليا لليبيا . وقد كُتب لمؤرخ الاسلام العظيم ، الساخط على كل عنف ، العامل للديمقراطية الحقة ، ان يموت في كندا عام ١٩٢٥ بعيداً عن بلاده منفياً بارادته بعد ان وهب مكتبته لمجمع Lyncei ووقف ثروته للدروس الاسلامية وقفاً لا يزال قائماً يحمل اسمه . وفي يقيني اني اعبر عن عواطفكم ان حييت هنا ذكراه تحية الاجلال من هذه الارض العربية التي لم يضمر لها الا الحب والاخلاص . الى جانب هذين المؤرخين Caetani و Amari الذين تمتاز تآليفها بشمول النظر وطول النفس سلسلة من العلماء وليسوا دونهما شهرة ، وان اختلفوا عنهما مزايا ، سلسلة من العلماء عاشوا في اواخر القرن الماضي وبدء القرن الحاضر وانصرفوا الى درس اللغة وفقهها وادبها اكثر منهم الى درس التاريخ نذكر بينهم Celestino Schiaparelli تلميذ Amari ناشر الشاعر ابن حمديس الصقلي وناقل رحلة ابن جبير القيمة الى الايطالية . ومنهم ايضاً وفي الطليعة Ignazio Guidi و C. A. Nallino اللذان نالا في العالم العربي الاسلامي كل مودة واجلال . وانما اتيح لي ان ادرك I. Guidi في اواخر حياته فقط ولم يتح لي الارتباط بعلاقات خاصة مع شيخ المستشرقين الايطاليين واساميهم هذا الذي بذل جهده طول عمره للدروس الشرقية ولا سيما العربية . فاما ذكرياتي الشخصية المملوءة باعجاب التلميذ ومودة الصديق فهي لنجل Ignazio الكريم ، Michelangelo Guidi الذي سار باستقلال الاسلوب والرأي على طريق والده المشهور فعلم في جامعة روما اللغة العربية وآدابها ثم خلف نالينو في كرسي تاريخ الاعلام والانظمة الى ان اخترمه الموت قبل الاوان منذ سنتين فكان الهول على قدر المفاجئة . ولا محالة ان « الجويديين » تسلما صولجان الاستشراق طوال ثلاثة ارباع من قرن فكان الوالد اللغوي المدقق الذي وقف جهده على نشر النصوص القديمة (فاشترك مثلاً في نشر تاريخ الرسل والملوك للطبري) ووضع الابحاث اللغوية ، وكان الولد المؤرخ البصير الذي وجه اهتمامه الى البدع الاسلامية وما اليها (كالمعتزلة والخوارج والمزدكية والزيدية) ، مثبتاً آثارها بنظر ثاقب شغوف يعينه على على تفهمها ليس مجرد العقل والاستطلاع العلمي فحسب بل وشعور ديني عميق طبعت به شخصياته الفردة ، ولا شك ان بينكم غيري ممن يذكر Michelangelo Guidi ويشاركني في الشوق والحنان الى ذلك العقل النير والجهد البصير قصفاً قصفاً في تمام نشاط الرجولة .

ولا اطيل الكلام على مستشرق آخر من كبار المستشرقين الايطاليين عنيت به C. A. Nallino الذي ذاعت شهرته وهو حي حتى اطراف العالم العربي الذي تعرفه خصوصاً بفضل دراسات المفكر المصري صديقي الدكتور عبد الرحمن بدوي وترجماته لبعض ابحاثه والذي كان يريد على حد تعبيره ان « يعرف عن العرب كل شيء » فكاد يبلغ ما تمنى وصار في سعة علمه بحراً زاخراً قضى العمر متقشفاً وادعاً ، منصرفاً الى التنقيب في شتى مواضيع الادب والثقافة الاسلامية من علم النجوم الى علم الكلام ، من الفقه الى التصوف ، وما طرق باباً الا القى عليه نوراً ولم يكتف بالتنقيب في الكتب بل قطع في طلب العلم بلاد العرب كلها من اقصاها الى اقصاها – فتوغل الى عتبة الحرمين في جزيرة العرب نفسها – حتى ادركه الموت المفاجئ ، وهو يعمل في مكتبته لنشر معرفة الاسلام والشعوب العربية فكان تأسف الشرق والغرب لفقدانه شاهداً له بالرئاسة المطلقة في عالم الاستشراق الاوروبي بالدرجة الاولى بين المستشرقين الايطاليين .

ولا يسعني وقد ذكرت Nallino ان اتجاوز عن ذكر مستشرق آخر كان من معاصريه ولم يقل عنه نبوغاً على عزلته وطيب خلقه الا وهو D. Santillana الذي انصرف الى البحث في الشرع الاسلامي ووضع فيه كتاباً جاء فريداً لم يضاهه فيه مؤلف اوربي عمقاً واتساعاً .

وان من ذكرت من كبار معلمينا قد طواهم الموت جميعاً ولم يبق منهم في قيد الحياة الا G. Levi della Vida البحاثة الشهير الذي علم اثناء الحرب في جامعة Philadelphia الاميركية ثم عاد بعدها الى رومة . ولكن نشأ مستفيداً بهؤلاء الاساتذة جيل جديد من المستشرقين لا يزال يحاول في بلادنا حفظ مستوى رفيع لهذه الدروس .

اما مراكز الابحاث العربية الشرقية التي كانت في اواخر القرن الماضي موزعة في مدن مختلفة من البلاد (كفلورنسة وتورينو وبالرمو) فقد تجمعت الآن كلها تقريباً في نابولي وروما ، ولا يزال قائماً في نابولي المعهد الشرقي المؤسس في القرن التاسع عشر لتهيئة المرسلين على انه تحول اليوم الى معهد عال درّس فيه اغلب المستشرقين ولم يزل الى اليوم مركزاً مستقلاً عن روما . لكن روما ما لبثت ان اصبحت مركز الاستشراق الاكبر نظراً لجامعتها الكبرى ولمكاتبها ومتاحفها ولسكنى العلماء وعملهم فيها . فان المدرسة الشرقية من كلية الآداب في جامعة روما تضم اليوم اساتذة لتعليم معظم اللغات الشرقية . فيما خص الدروس العربية فروع لتدريس اللغة والادب والتاريخ والاوضاع الاسلامية واللهجات العربية الدارجة كالمصرية والطرابلسية وفروع تكميلية اخرى . وفي روما الى جانب المدرسة الشرقية في الجامعة التي تنشر منذ ٤٠ سنة « مجلة الآداب الشرقية » ، مراكز اخرى مزدهرة منها « المعهد البابوي للكتاب المقدس » الذي درّس فيه اعواماً طويلة مستشرق أنهى عمره بين ظهرانيكم عنيت به الاب Lammens وهناك « المعهد لدرس الشرق » الذي اسسه منذ ٢٥ سنة المستشرق Nallino والذي تصدر عنه مجلة لا اخالكم تجهلونها هي مجلة « الشرق الحديث » وهي بمثابة سجل شهري للحركة السياسية والاقتصادية والثقافية في الشرق الاسلامي تستقي معلوماتها مباشرة من الصحافة (العربية والايرانية والتركية) وتنشر الى جانب هذه المعلومات ابحاثاً قيمة حتى اصبحت نموذجاً لما انشيء على مثالها من مجلات من هذا النوع في المانيا وفرنسا واميركا . وان اعداد هذه المجلة لتؤلف مجموعة من الوثائق لا يستغني عنها مؤرخ العالم العربي الحديث منذ انقضاء الحرب العالمية الاولى ، فعهد الانتدابات ، الى ايامنا هذه . وان ما اتصف به مؤسس هذه المجلة من صفات الدقة في التحقيق العلمي قد حصل لها مكانة لم تفقدها حتى بعد وفاة مؤسسها .

ولا يفوتنا ان نذكر ان هذا المعهد قد نشر في ستة مجلدات الآثار العلمية لنلينو Nallino في السنوات العشر بعد موته فصار هذا المجموع من المجلدات الستة (التي ظهر الاخير منها في الصيف المنصرم) من انفس ما انتج الاستشراق الايطالي منذ اوائل هذا القرن . وكذلك نشر « المعهد للشرق » المذكور تأليف Laubillana في الشرع الاسلامي الذي سبق الكلام عليه كما نشر خير كتاب عندنا في قواعد العربية وهو Gram. teor. prat. della ling. Araba لـ V. Vagliari الذي جرى طبعه هنا في لبنان .

ولم تقو هذه الحرب العالمية الثانية العنيفة على محو المعاهد الشرقية المنوه عنها فهي لا تزال قائمة كما ان مجموعات المخطوطات لا تزال — والحمد لله — سليمة اذ لا يخفى عليكم ان بعض مكاتبنا سيما الفاتيكانية في روما والامبروسية في ميلانو تحفظ كنوزاً عن المخطوطات العربية وهي بعيدة من ان تنفد على كثرة ما استغلها من النشرات والابحاث .

ايها السيدات والسادة، آمل ان تكون هذه العجالة قد اطلعتكم، ولو بعض الاطلاع ، على الجهود الايطالية في الاستشراق منذ قرن بالتقريب ولكن ما ذكرت على مسامعكم من اسماء وعناوين لم يمكنه ان يجي امامكم اولائك الاشخاص وان يعرفكم الى ما اضمروا في قلبهم من الهوى وفي نفسهم من الظمأ الى هذه الدروس، اعني ما كان في تلك النفوس من سعي الى استقصاء حضارتكم والى ادراك الحق المجرد . ولعل بلادنا تفردت هنا عن غيرها بان البحث العلمي لم يتبع فيها المصالح المادية والسياسية وأغراضها بل سبقها . فقد بحث Amari في تاريخ صقلية العربي رغبة في اضاءة صفحة غامضة من تاريخ وطنه . وبحث Caetani وهو عدو عنيد لكل استعمار واضطهاد فرأى في التاريخ الاسلامي عاملاً مهماً من عوامل حضارة البحر المتوسط وقد بحث فيه بحثاً علمياً مستقلاً محضاً بلا تحيز ولا تعصب . وبعد ان استعمرت ايطالية مستعمراتها لم يسخر مستشرقوها علمهم لخدمة مصالح مادية عابرة وان افادوا بلادهم من علمهم (كما كان من حقهم وواجباً عليهم) فما تسامحوا يوماً واحداً في سبيل هذه الافادة لا برزانة العلم ولا بكرامة الانسان . فحق لنا نحن العلماء المستشرقين في ايطاليا ان نصدق ان تحدثنا عن صداقتنا للعرب وسعينا الى التفاهم بين شعبينا حتى لا اظن واحداً منكم يشك في اخلاصنا او يتهمنا بالرياء . وها انا ذا آخر هؤلاء المستشرقين وقد وقفت في هذه الايام بوطء ارضكم العزيزة وتشرفت بهذا التحدث

— البقية في صفحة ٤٨ —

طفولة مكسيم غوركي

وجهت الحياة الى الاديب العالمي مكسيم غوركي منذ طفولته، وفي سني شبابه، ضربات شديدة ما كان ليستطيع التغلب عليها والنهوض من كبوتها، لولا الموهبة الادبية العظيمة التي فطر عليها، ولولا خلقه الرفيع الذي أبى عليه أن يذل أو يستكين، ولولا قلة ملاحظته ودأبه الخارق على المطالعة المستمرة، بعد أن تعلم مبادىء القراءة والكتابة، في أشد ايام تعاسته وفي أحفلها بالعمل الجسدي المرهق.

ولد غوركي، واسمه الصحيح الكسي بشكوف، في ٢٨ آذار (مارس) سنة ١٨٦٨ في مدينة قديمة على الفولغا تدعى نيجني نوفغورود. وكان أبوه نجاراً فقيراً توفي وابنه لا يزال في الرابعة من عمره، فانتقل الطفل الى كنف جده، حيث عاش حياة مظلمة مغرقة في البؤس والعذاب.

وقد روى انه ما كاد ينتقل الى هذا البيت الجديد، حتى امر جده بتعليمه الصلاة، وانتدبت عمته ناتالي للقيام بتلك المهمة، فجعلت تلقنه: «أبانا الذي في السموات...» فاذا سألها عن معنى هذه الكلمة او تلك من الدعاء الموضوع بلغة سلافية معقدة قديمة، ألقت فيما حولها نظرة خائفة، وأجابت بلهجة الناصح المشفق:

لا تسل شيئاً. هذا أفضل. اكتف باعادة ما أقول. هيا أبانا الذي..

فكان يضطرب ويقلق، وكانت تصرفاتها البلهاء وحركاتها المتكلفة، تثيره وتشغله، فلا يستطيع حفظ ما تلقنه اياه.. وقد سأله جده بعد أيام:

– هل تعرف «أبانا»؟

فأجابته العمة: – ان ذاكرته رديئة!

فقال الجد بابتهاج: – اذن فيجب جلده!

وسأله هل كان أبوه يضربه، فقالت امه ان اباه لم يضربه قط وكان يمنعها من ضربه لانه كان يعتقد بأن الضرب لا يفيد شيئاً..

فضحك الجد من غباوة المرحوم، ثم قال وهو يداعب شعره بغبطة: – انني سأجلد ساشكا يوم السبت!

لم يفهم الكسي ماذا تعني كلمة الجلد، وانزوى في ركن مظلم ليفكر.. لقد كان يرى الخيول والكلاب تُضرب وتُجلد، وقد رأى مرة في مدينة استراخان جنوداً يضربون الاهلين. ولكنه لم يكن ليعلم ان الاطفال ايضاً يضربون. على انه لم يلبث أن شهد ذلك حين جلد الجد ساشكا يوم السبت، بل انه ما لبث ان اختبره بنفسه اذ تحول اليه الجد ليعاقبه على هفوة بدرت منه..

وقد وصف تلك الفاجعة في ذكرياته باسلوب شائق مؤثر، فروى ان جدته ارتمت عليه وطوقته بذراعيها محاولة انقاذه من السياط، فانقض الجد عليها وضربها وانتزعه منها، فطفق يتخبط بين يديه محاولاً الافلات من قبضته، يشد لحيته تارة ويعض اصبعه تارة اخرى، وهو يهدد مزمجراً، ضاغطاً اياه على صدره، حتى استطاع ان يخنق مقاومته، فقذف به الى المقعد وصرخ بوحشية: – اربطوه.. اريد ان أذبحه...

فهلع قلب الطفل لتلك الصرخة التي قال فيما بعد انه سيذكرها الى الابد، وانقض الجد عليه يجلده، وامه ترود من حوله، وقد شحب لونها وجحظت عيناها، متوسلة ان يبقي عليه، وهو ماض في جلد الطفل لا يريم حتى فقد الوعي.

لبث الكسي بعد ذلك مريضاً بضعة أيام، مستلقياً على السرير في غرفة ليس لها غير نافذة واحدة، وفيها قنديل أحمر يشتعل نهاراً وليلاً أمام رف تكدست عليه تماثيل القديسين. فكانت تلك الايام الرهيبة من أقسى ايام حياته، فشب وكبر وذكراها ماثلة في نفسه ملازمة لها، وقد تركت فيها أثراً قوياً عميقاً.. قال: «ومنذ ذلك اليوم، ولد في نفسي هذا الاهتمام القلق بالكائنات البشرية جميعاً، كأن قلبي قد انفطر فغدا أكثر رهافة وأشد احساساً بآلام الناس!»

ولم تكن معاملة الام لابنها خيراً من معاملة الجد.. فقد تركت حياة البؤس والذل في نفس هذه المرأة جراحاً عميقة كان لها رجع قوي في سلوكها، فغدت حادة الطبع شرسة الخلق ثائرة العصب، تقتص من ولدها لأوهى الاسباب...

وذات يوم عاد الكسي من لعبه، فهرعت امه اليه تسأله أين كان، وقبل ان يجد وقتاً للاجابة على سؤالها، بادرت الى الامساك به من شعره، وتناولت بيدها الاخرى مدية، وجعلت تضربه بسطحها حتى افلتت منها، فأمرته ان يناولها اياها، فأطاعها، ولكنها ما لبثت ان أقصته عنها، فجلس أمام الموقد يراقب حركاتها برعب. ونهضت هي فاتجهت الى الركن الذي كان من عادتها الجلوس فيه، واستلقت على السرير، ثم اخذت منديلها لتجفف به عرقها، الا ان يدها سقطت مرتين متواليتين قبل أن يبلغ المنديل وجهها.. ثم صاحت:

– اريد ماء!

فملأ الكسي الكأس وناولها اياها، فرفعت رأسها بعناء وشربت جرعة واحدة، ثم دفعت يده عنها، وتردد في صدرها نفس عميق، وأخذ بصرها يتنقل بين صور القديسين، ثم استقر على طفلها. وانقضى وقت طويل والكسي الصغير مسمّر الى جانب السرير والكأس في يده، يحدق في ذراعي امه وهما يلتصقان بجسدها بقوة، وفي يديها وهما تحاولان ان ترحفا على صدرها فلا تستطيعان، وفي وجهها الشاحب وهو يجمد ويتصلب ويظلم، وفي فمها الذي انكمش ثم انفتح فجأة ولكن الطفل لم يسمع منه نفساً...

وبعد أيام من وفاة الام، ناداه جده وقال له على انفراد:

– الكسي، يا ولدي، انك لست وساماً فاعلقك في عنقي. وليس من الممكن ان تظل هكذا عالةً عليّ. اذهب فاضرب في مناكب الارض، فذلك خير لك...

قال غوركي: فذهبت أضرب في مناكب الارض!

لقد كان في ذلك البيت خادم تقدمت به السن لا يفتأ يهمس في اذن الكسي بيشكوف:

– اذا ما فقدت بصري، فاني سأذهب في انحاء العالم مستجدياً، ولسوف اكون اكثر سعادة مني الآن!

ولطالما تمنى الصبي، في سذاجة الطفولة وغمرة العذاب، ان يفقد ذلك الشيخ بصره سريعا ليكون دليله ويجوب معه انحاء العالم..

وها هو ذا، وقد فقد أبويه، وطرده جده، يشرع في رحلة شاقة نحو قاب الحياة، يكون فيها دليل نفسه، ومربيها، وهو لا يزال في حدود العاشرة من عمره.

قدري قلعجي

التربية وتطور البشر

بقلم الدكتور فؤاد مارديني

☆

لقد استقرت تفاعلات الحياة الاجتماعية التي اوحت القواعد التربوية باساليب متنوعة ، غير اننا نستطيع ان نميز من بين هذه الاساليب ، رغم اختلاف المدنيات والحضارات ، ورغم اختلاف المنظمات الاجتماعية ، ثلاثة عوامل مهما تغيرت الاوضاع الاجتماعية، والسياسية ، والاقتصادية ، ومهما تغير الزمان والمكان .

وقد نجد هذه العوامل الثلاثة في بعض الاحيان معاً، ولكننا نجد في الوف من المرات ، بحكم العادات والتقاليد ، عاملاً واحداً يتفوق على العاملين الآخرين ، ويوجه التربية . وان هذا العامل هو الاخلاق . الا ان العامل الذي يظهر لاول وهلة هو العمل .

لقد تكاثر البشر في هذا الكوكب الارضي، وتعودوا اقاليمه، وصارعوا البرد باختراعهم النار ، وجففوا المستنقعات، ورووا الاراضي الصحراوية، واخضعوا الطبيعة رويداً رويداً محترمين قوانينها على رأي «باكون»، واكتشفوا قوانينها التي زادت من قوتهم وبأسهم ، واستعملوا قواهم الطبيعية للترفيه عن نفوسهم ، وتسلطوا اخيراً على الكون .

لا شك في ان الانسان بذل جهوداً جبارة لتأمين راحته، وفكر ملياً، قبل ان يبذل تلك الجهود، في ان العمل غايته، وهذا ما دفعه الى متابعة جهوده علماً منه ان الانسان لم يخلق الا ليعمل . فالرجل الكبير هو رجل العمل . والشعوب التي تسير في مقدمة الامم حاملة مشعل الحرية والانسانية هي الشعوب القوية التي تعمل بجزم واقدام .

فتربية الطفل اذن معناها ان نجعل منه رجلاً قوياً يملك الصفات الخاصة للعمل . ومن جملة هذه الصفات ، الجسم الصحيح والقوي، خاصة في الامم الابتدائية . كذلك يتطلب العمل في الامم المتحضرة التوازن في الاعضاء ويتطلب الى جانب ذلك ايضاً اشياء اخرى ، كفكرة التأسيس ، وفكرة التنظيم ، والاختراع ، والارادة .

وان من شروط تقدم الادوات الصناعية الاختصاص في الاعمال فالتربية تسعى اذن الى خلق اخصائيين في الاعمال، والمعرفة هي التي تجعلهم اخصائيين . ولكننا نجد في مقاومة الطبيعة واخضاعها ، ونشر الانسانية شعوباً قوية وشعوباً ضعيفة . فيبدأ هنا الصراع بين القوي والضعيف ، فيقضي القوي على الضعيف بحكم الطبيعة ، وتصبح قضية جماعات تسعى الى القضاء على الجماعات التي تضاربها في العمل . فتنتج عن ذلك عواطف عدائية بين الجماعات المتجاورة ، ولا تظهر هذه العواطف الى الوجود الا اذا شعر القوي بظهور اعمال الضعيف . فكيف تكون اذن صفات اخلاق مجتمع مؤسس على مثل هذه العواطف ؟

اعتقد ان صفة اخلاق مجتمع مثل هذا هي النظام . لان العمل يتطلب نظاماً دقيقاً واختصاصاً ينتج نتيجة حسنة . فتكون الطاعة الفضيلة الاساسية لبناء مجتمع قوي، والتربية تقوي في الانسان حب النظام ، وتجعله عملياً وذا خبرة صناعية . او ليس هذا المفهوم ضيقاً محدوداً للحياة الانسانية؟ كيف استطاع الانسان اخضاع الطبيعة؟ اوليس بفضل نمو ذاكرته وسعة خياله؟ او لم ينشأ عن قوة تفكيره وتقدم معارفه ؟ وبكلمة واحدة ألم ينشأ عن قواه العقلية .

مما لا شك فيه ان الذكاء يسبغ على الانسان هذه الصفات الخاصة التي هي اثمن شيء عنده . ويتثقف بفضله، ويجعل لنفسه مكانة في المجتمع ، وتقوى شخصيته ، وينمو فيه جميع ما يجب ان يتصف به الانسان . وان العمل الذي كان يظهر لاول وهلة مثلاً اعلى ، يحل الذكاء محله ويعمل في تكوين الفرد . فيصبح الانسان بفضله عاقلاً ذا جرأة وتفكير عميق، والتربية تنمي عقله وتقوي فيه محاكمته .

فالفضيلة التي يعتبرها الانسان اثمن شيء في الحياة، تمثل الاخلاق العالية ، والقدرة في الحكم على نفسه ، والعمل الخير . وهذا ما يدل على تغلب الانسان على عاطفته وغريزته، واطاعته للعقل فقط . فينشأ عن ذلك فكرة النقد الحر والدراسة الحرة . وللثقافة في التربية

العطر الضائع

•

من ديوان النتن الحالم

يا انت

اني لن اعود

وسوف يتعبك انتظاري

سيضيع عطرك في الفراغ وما غوى غير احتقاري

واذا بعينيك اللتين عبدت ، ملؤهما انتصاري

تستجديان هواجساً تومي لفكرك باصطبار

فتطول وقفتك السخية – ويلها – ويطول شاري

ويظل يحملك الخيال وان يقر على قرار

غلّ الزمان بامنياتك واستباح حمى المدار

فاذا بدنياك الطليقة تستفيق على اسار

ويكاد يربط كل شيء في وجودك بانتظاري

***

يا انت

اني قد عبثت

ولم ازل طرباً بعاري

وغداً امر عليك معتذراً فيخدعك اعتذاري

بغداد — بلند الحيدري

المكانة الاولى . والدراسة يجب ان لا توسع في الطفل افقه العقلي ، وانما تقوي فيه المعلومات العامة عن اعمال الانسانية التي قام بها العباقرة لتجعل منه في المستقبل رجلاً ذكياً ، مفكراً ، يقظاً يستطيع ان يقود الانسانية على ضوء الحقيقة الراهنة . غير ان هناك مثلاً اعلى آخر اعظم من رجل العمل ورجل العقل . لان بين سلطة الانسان والحيوان وبين نشاط قواتها العقلية فرقاً كبيراً . الا ان الفرق في الجوهر والخصائص لا في الكم . فيتقارب شبه بعض الحيوانات مع الانسان في نشاطه الاجتماعي ، كالنمل ذي الغريزة الخفية والمجهولة تظهر اكثر دقة في بعض الاحيان من ذكاء الرجل .

فصفة الانسان هي حياته العاطفية التي لا توجد عند الحيوانات الا بشكل غريزي محدود لغرض ثمين ولمدة قصيرة . غير ان هذه العاطفة تذوب عند الانسان امام عاطفة الشفقة ، والرحمة ، وحب الخير . والمعرفة التي يستطيع الانسان ان يميز بها بين الخير والشر ، هي ما يختلف به عن سائر الحيوانات . فهي احسن من القوة ، والذكاء لان الرجل مخلوق فاضل . فالصفة المهمة ليست القوة ولا الحكمة ، بل هي الصلاح والتوجع من آلام بقية الناس والمشاركة في شعورهم ليخفف عن آلامهم . وان زهرة الفضيلة هي الانسانية . وليست كما يعتقد بعض الفلاسفة والمربين حب الطاعة ، ومعرفة حكم النفس ، وانما هي معرفة التفادي ، والتضحية ، وبذل النفس . وهذه من خصائص التربية .

فالقوة ، والحكمة ، والنشاط ، والذكاء ، والطاعة ، وقهر النفس لا تعادل التضحية ، والاسعاف ، وعمل الخير . ولا شك ان التمييز بين هذه الصفات صعب جداً ، ولقد استطعنا ان نميز ذلك علماً منا ان الاخلاق هو العامل الذي برز في جميع الانظمة الاجتماعية .

يتضح لنا من هذا الشرح ان العامل الاول يوحي اصول التربية التي تهتم بتقوية الجسم والطبع ، ويستند العامل الثاني على الثقافة ، ويهتم العامل الثالث بالاخلاق .

تتشكل مبادىء الاخلاق كما بين ذلك « دور كايم » من ثلاث قواعد اساسية . فتبنى القاعدة الاولى على النظام والاستقلال بالطبع ، وتبنى القاعدة الثانية على التفكير العقلي ، وتبنى القاعدة الثالثة على الصفات العاطفية . فتتلاءم هذه العوامل الثلاثة مع العوامل النفسية الموجودة في الانسان . غير ان التربية تفرق بين هذه العوامل الثلاثة وفاقاً للعامل الذي تختاره . وقد نشاهد مراراً هذه التفرقة بين العوامل الثلاثة ، فنرى ان فكرة الاستقلال بالطبع تحدد وقد تهدم فكرة النظام ، وان فكرة التضحية الزائدة قد تؤدي الى احتقار العمل والمعرفة . وان هذه التفرقة لا تدل على عدم امتزاج هذه العوامل الا اننا اذا اردنا ان نفرق بينها يجب علينا ان نفعل ذلك بصورة واضحة . والجدل الطويل في هذا الموضوع قد يحيد بالمرء عن الهدف الذي يبغيه . ولهذا نسعى الى اجتناب هذا الخطأ الذي يرتكبه الكثيرون في دراسة العناصر القوية والضعيفة في كل عامل من هذه العوامل ثم نظهر كيف امتزجت هذه العوامل في عهود مختلفة ونستنبط منها الافكار التي توحي وتقود التربية الحديثة .

حلب — فؤاد ماردين

قصة

جيف معطرة

بقلم عبد الملك نوري

هبة ريح باردة تخفق في حنايا الليل، فتنود رؤوس الاشجار السامقة نحو شرفـات القصر ونوافذه . وتتراقص الظلال المتشابكة المظلمة على الجدران الشامخة ، وتختلج الستائر المخملية الرقيقة في النوافذ العليا، ينبعث من ورائها نور راعش رقيق يتهافت فوق رؤوس الاشجار الضاجة بأنين الريح .

وتومض بين طباق اللحم المجعد في وجه (ام بديعة) بؤرتان صغيرتان تطوفان بانحاء البهو الانيق ورياشه الغالية ، وتحطان هنيهة على اذيال الستائر المضطربة الهاربة الى داخل البهو من وجه الرياح .

البـلاء ، آه لم ينقض بعد ! رجفة في ظهري ، اين مشلي الصوفي ؟ رائحة النفتالين ، بديعة افتحي هذا الدرج ، اقول هذا الدرج، كبرنا يا ابنتي، عجزنا . اين بطرس ؟ اشعل النار في الموقد، نعم يكفي ، يكفي، لا تضع حطباً كثيراً. النار تشتعل ، اللهيب الاحمر ، السنة الشياطين ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم . اقول يكفي ، لمن اتحدث ؟ آه ، يا كاب ، كأنه ينفق من مال ابيه . نزاح ، وبصوته العالي المبحوح: نزاح ، نزاح ! خارج من الكنيف. إف ، رائحـة المراحيض ، والفأس في يمينه والمسبار الاسود الطويل على كتفه وذيل ثوبه معاق في حزامه ، وقدمـاه تطبعان على الارض شبحيهما الاسودين . نزاح ابن نزاح ابن نزاح .

وتلمح « جارتها » تتدثر بعباءتها وتلفها بأحكام حول ساقيها .

– ام سهام ، بردت ؟ عيب عليك . . . الدنيا ربيع . .

– عاد الهد والله يا ام بديعة ! – هذه هبّة عابرة، الدنيا ربيع .

وتبسم ام سهام : ربيع هه ، الدنيا زمهرير ، ولكن البخل، البخل ، خايبة لمن ستتركين كل هذا المال ، رجالك في باب القبر ، وليس عندك غير بديعة، وبديعة من فضل الله في رفاه ، زوجها ينهب مال الله وعباد الله، هه مسكينة ، اذا لم تنعمي في حياتك الآن ، فمتى ستنعمين ؟ وتصيح ام بديعة : – بطرس ، بطرس !

النار تتأجج في الموقد، رجفة في ظهري! الدفء يشيع في الغرفة المشل الصوفي في الدرج ، رجلاي قالبان من الثلج .

« نعم » مطولة ، ووقع اقدام بطيئة ، ويطل وجه الخادم الشاب في شق الباب . – نعم !

– قل لبديعة عندنا ام سهام ! – امرك .

***

بديعة مضطجعة في فراشها الوثير تقرأ رواية خليعة .

ام سخام ام سخام ، حسناً سآتي . انا آتية . . فهمت .

– ماذا اقول للخانم الكبيرة ؟

ويحدق بطرس في الجسد الفاتن الرشيق ، في الفـم القرمزي الصغير ، في الجيد الاتلع والصدر الناهد ، في القدمين العـاجيتين الصغيرتين، ويعاود النظر مراراً الى الساق البضة العارية وقد انحسرت عنها الغلالة الحريرية الرقيقة الناعمة . . . وتمضي بديعة في مطالعتها الصامتة : « ثم احتضنها . . احتضنها بشدة » .

– ماذا اقول للخانم الكبيرة ؟ – فهمت !

ويلقي نظرة اخيرة على القدمين العـاجيتين والساق البضة العارية ، ويتأوه مولياً الادبار . .

« ثم احتضنها ، احتضنها بشدة ، فاحست بجسدها يضطرم بين ذراعيه الجبارتين، ورفعت اليه وجهها اللاهب تريد ان تقنص نظرته بعينيهـا المشوقتين ، فوجدت عينيه ترغبان وتتوسلان وتهمسان : اريدك ، اريدك ! ثم احست فجأة بشعلة ناعمة تطبق على شفتيها الظامئتين ، ولم تعد في هذا العـالم . لقد تفتحت لها ابواب عالم آخر » .

وتضع بديعة الكتاب جـانباً ، وتحلم : اريدك ، اريدك يا حبيبتي . . اي مديحة . هنا، هاهنا على الحائط ، ادفعيني ادفعيني بجسدك المحموم ، ضعي يديك حولي ، هكذا هكذا . . وهاتي شفتيك . كل شيء . . . كل شيء . . . كل شيء . . اجل . . اجل كل شيء . . . على كل . شيء شششي .

الساعة تدق تسعاً، ام بديعة تنود برأسها : اين انت يا رجل ؟ ألست تريد ان تعود؟ الا تقل عندي بيت ، عندي امرأة ، عندي ولد ! من الصباح حتى الآن يقبّل طلال ويعطيه القسط المدرسي اثناء الفطور . النجاح ، هه ، مثل هذا الحمار ينجح ؟ شغله السكر والقمار والركض وراء البنـات انت افسدتـه ، اي والله انت افسدته ، تحشو جيبه كل يوم بالدنانير .

وتلف ام سهام لفافة ، ثم تبلهـا بلسانهـا ، وتنظر الى ام بديعـة

من وراء زجاجتين سميكتين : — هل الف الك واحدة ؟

— لا ، رميتها الآن . دخنت كثيراً . قلبي ثقيل اليوم . المحنة شديدة والهم كبير ، لو كان كل اصهار الناس مثل صهري . يحك رأسه ويطل من النافذة ، قامته الضخمة وكرشه المندلق وعيناه الجاحظتان ، قبل تسعة عشر عاماً . لا لا ، قبل ثمانية عشر بالتمام ، اول سنة له مع بديعة ، كان يقبل يدي صباح ، مساء .

وتشعل ام سهام لفافتها : — تأخر اليوم ابو طلال !

— نعم . . (وتتحسر) . .

بيت الصهواني . تتلوى وتتضاحك ، آه يا عاهرة . العاهرات اشرف . وجوه مطلية بالاحمر والابيض ، اعجاز القرود ، تمر في غربة . المبنى العام والشرطة وقوف في بابه والناس يدخلون فيه افواجاً ، عيد ، عيد الحثالات ، والاطفال في ملابسهم الملونة يركضون في الشارع والاراجيح ودوار شديد وقيء . . ، والعربات المحملة بالنساء والاطفال ، واغانيهم ترتفع الى السماء ، وضجيج ، ضجيج في كل مكان ، وفرق الموسيقى تعزف ، عمي يا بياع الورد ، عمي يا بياع الورد بطرس اعطهم درهماً ، ازعجونا ، اصرفهم . ! .

وتتساءل ام سهام : — اظن ابا طلال في بيت .

— بيت الصخاني بك ، نعم !

خليل بك الصهواني هاها هاه ، قواد بن القواد ، الافضل لو كان قد تزوج واحدة من المبغى . انا لو كنت رجلاً أبقي هذه العاهرة يوماً في بيتي ؟ ولكن اين الغيرة والشرف . اين الرجال ، هل بقي في العالم رجال ؟

وتنظر الى صورة ابيها المعلقة على الجدار ، وتبتسم ام سهام : — سبحان الله ، مذ عرفنا هؤلاء وعرفونا اضطربت الاحوال .

— قسمة . . ! عشرون سنة ثم يتركها . هذه الوردة الشذية ، ليركض وراء الشيخة المتصابية ، آه يا عاهرة . كلاب كلهم كلاب ، اينما يلقوا الانثى يشموا عقبها . بديعة ، بطرس نادها قل لها ام سهام عندنا . . — بطرس !

« نعم » من بعيد ، ثم يطل وجهه . — نعم خانم .

— اين بديعة ، نادها مرة اخرى ! — امرك .

***

تعال افرك قدمي ! يحمر وجهه وترعش يداه ، خايب ماذا اصابك ؟ لا ، لا ، على مهل ، من تظنني ، مريم ؟ كحيل احمر قاعدة في المطبخ تصنع رقاق الخبز ، حمار ، اهذه امرأة ، انت اجمل منها . وتقفز بديعة من فراشها الوثير : — بطرس ، زرر ثوبي من الخلف ، واعطني المعطف الابيض !

ام وجه الغراب وكل يوم ، كل يوم ، تاركة بيتها وبنتها ولاصقة بنا ، البهو المظلم والاثاث العتيق ، وصورة ابي سهام معلقة على الحائط في اطارها الاثري ، خنزير متين الرقبة ، وصورته في شبابه . كيف كانت ام عيني الغراب — وراء الزجاجتين — ايام شبابها ؟ والله تعبنا . هاكنا من رؤية هذا الوجه المنحوس ، كل يوم كل يوم . آه يا امي لو اعلم ماذا ترين فيها ؟ امي قاعدة تتنفس بصعوبة ، لحم وشحم ، خطر على القلب ، والدكتور ناصر .

وتمتد يدا الخادم الشاب الى فتحة ثوبها عند العنق ، وتلامسان الازرار الباردة وتسري فيهما رعشة : اهو زبد ؟ يا الله هذا اللحم الابيض الناصع ، هذه النعومة ، هذه الحرارة ، ومشد الصدر الحريري ، رمانتان بيضاوان ناعمتان . وطابا صدر مريم ، وهي مكومة في الفراش الدافىء . في الصباح الباكر — تعال . — لا لا ، الخانم تصيح ! قبلة كاوية حمراء في الخد ، جيفة فمها ، ساقان ضخمتان سمراوان تغادران الفراش ، وحنك فوق حنك وتتثاءب . .

— نعسانة ؟ الكنيسة غارقة في ظلمة الغسق والقس بثيابه المهيبة يعقد الزواج . آه لا تقرصني !

— عيب ، عيب تتثاءبين . — اطالها ، متى ينتهي ؟ — صه ، عيب ! باسم الآب والابن وروح القدس باسم الاب والابن ، خادمة الله ، وروح القدس ، خادمة الله مريم مريم يوحنا في الصحة والمرض في الفقر والغنى ، اطيعي زوجك عبدالله المسمى بطرس ميخا ، وانجبي له ذرية صالحة . .

وتصيح بديعة فجأة : — يكفي ، ألم تنته ؟

— انتهى ! — هات المعطف الابيض ! ويسرع الى الخزانة ، ثم يضع المعطف بيد مرتجفة فوق كتفيها .

***

دوي قهقهة يتلاشى . وتختلج البؤرتان الصغيرتان بين طباق اللحم المجعد وترشقان نظرة عجلى على وجه الساعة الاثرية المثبتة في الجدار .

— اما تخابرين زوجك ؟ — واين هو ؟

— في بيت الصخاني . ايمكن ان يكون في غير بيت ؟

— هي هي هي هه . وتخطر بديعة في البهو رشيقة مياسة ، ينبعث من اعطافها عطر فاغم شذي ، يوج وراءها كحلم سحري شفاف يحتضن كل شيء . وترفع سماعة التلفون وتدير القرص اربع مرات وتنتظر . .

ام وجه الغراب تحدق فيّ ، كم امقتها . . حسودة ، نمامة ،

جيرة الشر ، هل ابقت على حالنا شيئاً ؟ الله يفقأ عينيها وينقذ العالم منها ، امي منحنية تفقأهما على الورقة بالدبوس ، جعلتها غربالاً . الغربال الصغير في المطبخ ، والطبـاخ يصفع فخرية ، وامي ترمي الورقة في نار الموقد وتقرأ آية الكرسي . — هالو اريد ممدوح !

ويدهم ام سهام شعور بالغبطة ، فتمدد رجليها وتنشق بمـلء رئتيها نفحات من العطر الحالم الشائع في البهو : غال جداً ولاشك . امس في مخزن عبد الحميد الظلام ، سهام تشتري قنينة عطر صغيرة بنصف دينار ، حرام يا ابنتي والله حرام تبددين نقودك في هذه التوافه . — كل الناس ! نعم ، اولئك ينهبون ، اين منهم ابوك المسكين . يشد رباط رقبته امام المرآة ، وسيارة محملة بصفائح السمن تقف امام بيت ممدوح بك والظلام والحاوس يصفر ويقترب والحمالون يصعدون وينزلون في ضجيج ، وبديعة تصرخ وتشتم .

وتتململ ام بديعة في مكانها بانزعاج ، وتسعل بضع سعلات وتتمخط في منديلها بصوت مسموع : آه يا بنت ، ليس يهمك شيء ، حتى ولا صحة امك . كم مرة نبهتك ان تتركي هذا العطر . انه يؤذيني الا ترين ؟ انا عندي « احتوقان » ، ألم يقل امامك - عندي «احتوقان» الدكتور الخائب منحن يفحص صدري وظهري . مسكين يكاد يزحف على الارض . قميء . صغير هزيل . معاذ الله ، يأجوج ومأجوج ، ونيران الجحيم تتلظى ، والنار تشتعل في الموقد ، السنة الشياطين ، اللهم عفوك وغفرانك ، اللهم عفوك وغفرانك . اللهم عفوك وغفر . . والبلاء ، آه لم ينقض بعد ! الدنيا زمهرير ، رجفة في ظهري ، عجزنا يا ابنتي ، والمشل الصوفي الاحمر فوق كتفي ، ماذا ماذا يقول ممدوح ، لن يأتي ؟

— نعم ، نريد ان نتعشى ، متى يأتي ؟

وتضع بديعة السماعة بحنق ، وتعود الى مجلسهـا : — سيأتي « البك » بعد نصف ساعة !

وتختلج البؤرتان الصغيرتان ثانية ، لترشقا نظرة اخرى على وجه الساعة الاثرية المثبتة في الجدار ، وتحدق ام سهام في وجهها المستطيل يطل عليها من مرآة جانبية قريبة من مجلسها وتلمح الشعر المتنـاثر فوق ذقنها وعلى سطح شفتها العليا ، وتطيل النظر :

وحدي في الغرفة وابو سهام في الحمام وارجلي ممدودة عـلى الفراش ، والمرآة الصغيرة في يدي ، والملقط باليد الاخرى ، وانتفها واحدة واحدة ، آخ آخ شش إف آخ آخ ، نظافته ، النظـافة من الايمان ، والنبي عليه الصلاة والسلام ، وسهـام بثوبها الابيض في الباب — اماه أحتم ان ينبت لكل العجائز لحى وشوارب كالرجال ؟

كو كو كو كو كو كو كو . شيطانة خبيثة ، بنـات هذا الزمان ، يسترنا الله من هذا الزمان ، بنت الصهواني متعلقة بذراع ممدوح بك ، قد الثور افخاذها تزن خمسين كيلو وتتصرف كالاطفال .

الساعة تدق عشراً ، وام سهام تتثاءب وام بديعة تنوء برأسها ، وفخرية جـاثية عند قدمي بديعة تفركهما ، وبديعة تحوك ثوباً صوفياً ابيض : الم تشبع بعد يا رجل ؟ طول النهار عندهم ، لو اعلم بم سحرت لك هذه العاهرة ! اوه انا جائعة ، بعد نصف ساعة ، هاه ، اين نصف الساعة ! انا جـائعة ، ممدوح يقهقه قهقهته العميقة ويربت يد امرأة الصهواني في غرفة الطعام ، السفرة جاهزة والصحون يصاعد منها البخار ، بطرس ناولني الملح ، اقول الملح .

— فخرية ، اذهبي رتبي السفرة مع بطرس !

— البك لم يأت بعد ! — هذا لا يعنيك .

وتذهب فخرية وقد احمرت وجنتاها واطرق رأسها وتعثرت خطاها : وطلال لم يأت بعد . بذلته القاتمة السوداء ، وعيناه الباسمتان وشعره الفاحم اللماع ، اين هو الآن ؟ مع الفتيـات الجميلات في السينما ! يقبل ليلى تحت شجرة البرتقال في الحديقة في الصيف ، وحفلة عيد ميلاده ، وفرقة الموسيقى بالثياب البيضاء ، تحت الانوار الساطعة ، وحلبة الرقص في الوسط ، وهو يرقص مع كل الجميلات ، شيطان يترك واحدة ويأخذ واحدة ، رائحة العرق في فمه ، ويقبلني تحت السلم ويده فوق صدري . . آه اكاد اسقط على الارض . وتتلمس في الممر المفضي الى المطبخ صدرها الخافق الفتي ، وتطلق آهة .

وتتنحنح ام سهام وتشعل لفافة اخرى وتلتفت الى ام بديعة :

— اتعلمين من زارني امس ؟

— من ؟ — جارتكم القديمة !

— خديجة ، اين تسكن الآن ؟ — في الفضل .

— آه ، يا ناكرة الجميل ، تأتي الى هنا ، ولا تنعطف قدماها الى بيتنا . . — مسكينة ، نكبها الدهر بعد كل ذاك العز والرفاه .

— هـكذا شأن الدنيـا . . وتتحسر ام بديعة ، وتمتص ام سهام نفساً طويلاً من لفافتها :

— لقد مات زوجها ، ولم يبق لها ولاطفالها غير راتبه التقاعدي .

— مسكينة ! — تريدين الحقيقة يا ام بديعة كل الناس مساكين هذه الايام . . — صحيح .

ان المرء لم يعد يعرف ما يصنع مع هذا الغلاء الفاحش . يرتق من هنا ينفتق من هناك ، صفيحة السمن بـ ١٥ دينـاراً وكيس الارز بـ ١٨ ديناراً . في اي زمن كان الغلاء بهذه الفظاعة ! والله ،

لو تدرين بأي مشقة ادبر امور البيت ! كل يوم . من الصباح حتى المساء ، اكفر مئة مرة . مع ان ابا سهام ولله الحمد ميسور الحال ، فكيف يا ترى يعيش بقية الناس ؟ .

— كل الناس في ضيق هذه الايام . الامر لله الواحد القهار . الغني في ضيق والفقير في ضيق ، تصوري كل عام في مثل هذا الشهر بيتنا يمتلىء بالذخيرة من صفائح السمن واكيـاس الحنطة والارز والماش والعدس وكل شيء حتى الفحم والحطب . اما السنة ، فلا ندري ما نصنع . كل شيء غال . مثل النار ، والراتب مهما كبر كيف يكفي مثل هذا البيت ؟

وتهز ام سهام رأسها مبتسمة ، صحيح ، صحيح ، انت تقولين وانا اصدق ! اذن اين ذهب النهب والسلب ؟ ولو لم ار بعيني كل شيء ! السيارات المحملة ، واصحـاب الرشوة والهدايا . — هذه ثلاثة اكياس ارز وكيس حنطة من الشيخ سلمان . — هنـاك ، هناك بيت ممدوح بك ليس هنا ، وتتحرك سيارة الشيخ . وممدوح بك قاعد فوق الكرسي المريح يهتز — والله ام سهـام ، بشرفي بمقدساتي ، انا لا اجد فرصة ارتاح فيها من مطاليب الناس ، هذا يريد وظيفة وهذا يريد اجازة استيراد ، وهذا يريد ان ينقل اخاه الى بغداد ، وهذا يريد ادخال ابنه الى احدى الكليات ، وهكذا وهكذا ، وانا اركض والمشاء خباز اصحيح صحيح ها ها ، اذن من اين كل هذه السجاجيد الغالية كل واحدة بـ ٥٠٠ دينار ، ومن اين عقود الماس والذهب ، واكداس الدنانير التي تصرف في القمار والعمارات والاراضي والانفاق ليل نهار ؟ لو كانت ساقية من فلوس لنضبت الآن . ولكنها بحر ، بحر من جلود الناس المساكين . زوجة عبد الجبار تنتحب وتضرب صدرها بيدها — اخذ مني مئتي دينار ، الظالم ابن الظالم ، ولم يعد زوجي للوظيفة ، آه بأي شيء بأي شيء ادعو لك يا كافر ، جلادون ، قساة القلوب ، كفرة .

وتمتص نفساً آخر من لفافتها ، وتطل فخرية مرتبكة حيية ، مطرقة : — العشاء حاضر ! وتنهض بديعة بحركة رشيقة :

— تفضلي ام سهام ، هيا امي ! . . ام تريدين ان ابعث اليك طعامك ؟ — لا ، لا . . انا آتية .

عقب لفافة يومض في ظلام السيارة الفارهة الانيقة . ثم يخبو ليومض من جديد . وكلما اومض ، بدا جزء من الوجه المنتفخ ذي العينين الجاحظتين واللغد المهدل والانف المستقيم .

وتمر السيارة تحت مصباح من مصابيح الشارع ، فينظر ممدوح بك في ساعته : العاشرة والنصف ، متى خابرت ؟ قبل ساعة ، هاه قبل ساعة ، لا بأس . ستسكت مثل كل مرة ، وينقلب العبوس الى سرور . اي اي انا اعرف . بديعة جالسة في استرخاء شهي على الكرسي المريح ، قدماها الصغيرتان تطـلان من تحت ذيل الثوب الوردي الطويل . تقرأ مجلة .

ويتحسس علبـة مخملية صغيرة في جيبه ، ويبتسم : بيت الصهواني وضجيج الاطفال ومائدة القمار ومخاصمات الكبار وسعيد يضرب نهلة والام تبتسم ببرود — اطفال ، ما يزالون اطفالاً ، وتحدق في العلبة المخملية الزرقاء . غيري المسكينة غيري ، امرأة ، مـاذا تصنع ؟ وزوجها عـاطل ومفلس . خليل بك يتنشق شيئاً من السعوط — هل اعطيك ؟ — لا لا ، انا لم اشخ بعد ها ها هاه قه قه قه . . ليت كل الازواج مثلك . وتتضاحك اللعينة . امرأة فاتنة ، انوثة انوثة ، صارخة ، درة في يد فحام ، قه قه قه — لكل مقام مقال ، هذه العلبة تقتلع العاصفة من جذورها — العاصفة في القلب يا ممدوح بك ، تلك لا تقتلع ! تحمد يا نبيهة هانم . . . — كما تحمدون عواصف الناس بالرصاص ؟ — هذه المرة بالماس ها هاه قه قه قه ، وتشيعني الى الباب ويدها الدافئة في يدي وتضغط عليها ضغطاً قوياً . — نشكرك ممدوح بك ! — على م ؟ — لانهـاء قضية سعيد . — اوه في اليوم ادخل عشرات الناس في الوظـائف واكثرهم غرباء ، سعيد مثل طلال ، كنت اريدك ان تشكريني شكراً حقيقياً . — كيف . وتبتسم ! — لا اقول كيف . — ذلك عندما يعاد خليل بك الى وظيفته ، اليس كذلك ؟ — انت اعلم قبلة طويلة ندية لذيذة ، وتدفعني بكلتي يديهـا برفق — الاولاد الاولاد ، ارجوك ليس هنا ، ليس هنا .

— في ذلك المكـان اذن ، غداً بعد الظهر . — نعم نعم ، اذهب الآن ، اذهب . . !

وتقف السيارة الفارهة امام القصر المنيف ، ويترجل ممدوح بك بتؤدة ، ويسير في ممر طويل لاحب ، بين الاشجار الباسقة . يحف به جمع من الخدم والحراس ، ثم يدلف الى البهو الدافىء ذي الرياش الغالية . .

ثلاثة حراس وقوف عند باب القصر الخارجي :

كاظم — عاد البرد يا جماعة (وينفخ على اصابعه) .

حسن — برد ، اين البرد (ويضحك ، فيصطك فكاه) .

محمود — يبدو انك لا تشعر بالبرد ، يا بليد ، انا اكاد اجمد .

كاظم — هيا اجمعوا بعض الحطب من الحديقة . اذهب محمود !

محمود — لن اذهب ! كاظم — ولم لا تذهب ؟ انت حارس

قديم هنا ، وتعرف كل المداخل والمخارج. محمود - اخشى ان تعلم ام الخانم! كاظم - واذا علمت ، هل نحن مقترفون جريمة؟ محمود - اعظم من جريمة! اذا علمت ام الخانم لن تبقيني هنا ساعة واحدة. كاظم - انا ذاهب اجمع الحطب، اذن دعها تعلم انك جبان.

إش اش برد ، لو ادري لمَ ابرد بعد العشاء ، لا عيني لا ، هي الدنيا باردة الليلة . وتلف ام سهام العباءة حول ساقيها بأحكام ، وتتجشأ ام بديعة ويلوح في وجه بديعة الغضب ، وتنظر شزراً الى زوجها : - اما قلت بعد نصف ساعة؟

- انت السبب ، والله انت السبب ، بديعة! - بل قل اولئك الناس هم السبب!

- اي ناس ، انا ليس لدي سوى بديعتي - اي نعم .

- انت اخرتني من المجيء. صدقي! بشرفي. - صحيح، صدقت!

- مـاذا اصنع مطاليب لاتنتهي ، وانا مضطر ان اركض وراء الناس في الليل . - والله كارثة! اي مطاليب ، اي ناس؟

- وارطـان الصائغ ، لقد ذهبت الى بيته واخذته معي بالسيارة ، وفتح الدكان امامي في هذا الليل البهيم . كل ذلك من اجل من؟ من اجلك انت!

- حقاً! ويفتح العلبة المخملية الزرقاء ، يأتلق في قاعها خاتم الماسي دقيق الصنع ، وتبتهج بديعة وتشيع في معارف وجههـا الغبطة : - آه ، هو بالذات .

- نعم ، اخبرني عنه امس ، وارطان . - اشكرك ممدوح .

- هذا اقل ما يجب ان اقدمه لبديعتي! وتتحسر ام سهام : نعم ، كل النـاس في ضيق هذه الايام . الغني في ضيق والفقير في ضيق ، ها ها هاه ، - والله يا ام سهام ، اركض والعشاء خباز! نعم نعم ، ويقهقه قهقهته العميقة ، لمَ لا تقول اركض والعشـاء خواتم الماس . هاه ، خواتم الماس؟ الخاتم الالماسي في اصبع بديعة تريه للحاضرين ، يوم القبول ، والبهو مكتظ بالنساء ، وثلاث موائد للقمار وبديعة تسار مديحة في زاوية وتتضاحكان وتلوحان بايديهما.

وتبسم ام سهام لنفسها ، وتتجشأ ام بديعة مرة اخرى: الاكل دسم . والبطاطا طافية فوق السمن . اوه كم مرة اوصيته . الحمار ابن الحمار . والطباخ في مئزره الابيض القذر ، ورائحة المطبخ ، والمجرفة في يده - انت لا تفهم؟ انا مع من اتكلم؟ الحمار ايضاً مرة مرتين ثلاث مرات يتعلم الطريق . كم مرة قلنـا لك نحن لا نأكل الدسم . قلل من السمن! ولكن من يسمع ومن يفهم . ولمَ يهتم ، نعم لم يهتم! اهو ينفق من كيسه؟ ها هو واقف بحجمه البغل يكشر في وجهي . اوباش ، اوباش ، لا تحنو قلوبهم على اموال غيرهم . آه الهد البلاء ، عاد ايضاً ، انا لله وانا اليه راجعون . النـار تتأجج في الموقد والمثل الصوفي فوق كتفي ، لا لا ، في فراشي الدافيء . اوه . رجلاي ثلج ثلج . زمهرير .

وتلتقط ام سهام علبة لفائفها وعلبة الكبريت ، وتضعهما في حقيبتها اليدوية السوداء ، ويتساءل ممدوح بك ، باهتمام : - اين طلال؟ الم يأت بعد؟ فتجيبه زوجه : - لا! لقد ذهب الى السينما .

- هاي هاي ، الظهر يلعب كرة ، والعصر مع اصدقائه عند معلم الرقص، وبالليل في السينما متى يحضر دروسه، فقط لو اعلم متى؟

- اوه، وهل انا مسؤولة عنه وحدي؟ - بالطبع، انت امه!

- وانت ابوه ، كن رجلاً حقاً في يوم من الايام ، وامكث في البيت ، وحاسبه! وتتدخل امها :

- صحيح ، يجب ان يرى الولد من ابيه عيناً حمراء ، والا فانه يبقى حبله على غاربه ، لان الولد . . . .

- اوه ، ام بديعة ، كأن الاب ليس له شغل او عمل سوى مراقبة ولده ، اذن ما شغلكما انتما في البيت؟ تربية الاولاد من واجب المرأة .

- والله ، الولد ولدكما ، وانتما المسؤولان عن تربيته ، انا لا اتدخل في هذه الشؤون . انا امرأة مريضة عاجزة ويسكت ممدوح بك على مضض ، وتلملم ام سهام عباءتها وتنهض ، فترنو اليهـا ام بديعة ، متسائلة : - الى اين؟

- الى البيت ، والله ، يا ام بديعة! - ولكنـك مبكرة الليلة بالذهاب .

- لا ، ام بديعة . حان وقت ذهابي . ابو سهام على وشك المجيء . تصبحون على خير .

- اجمعين - اجمعين . ! وتخرج متمهلة في مشيتها الوقور .

الحراس يصطلون حول كومة من الحطب المشتعل ، واحدهم يردد مقاطع من اغنية شعبية بصوت حنون مؤثر .

- اقول ، انك عاشق يا حسن! - واقول انك بطر يا محمود!

- قل ما تريد . انك عاشق .

- حقاً؟ أيوجد عشق في هذا الزمان؟ كل امرء لامر بشقائه .

- صحيح ، ولكن العشق موجود بارادة الله في كل زمان ، وهو لا يعرف الغني من الفقير .

- انا رجل متزوج ، كل ما يهمني ان استر امرأتي بخرقة واسد افواه اطفالي بالخبز ، حتى هذا لم يعد متيسراً لنا هذه الايام .

— والمعاش ، ماذا تصنع به ؟

— هاه ، هكذا يتكلم العزاب . المعاش ! كانك لا تعرف ما هو المعاش . اهو معاش وزير ام مدير؟ نصفه يذهب لاجرة الحجرة ، والباقي لا يكفي حتى للخبز وحده . ألم اقل انك بطر !

ويتدخل كاظم بجـدة : — اوه ، اخرسا اخرسا ، كفى ثرثرة ! هيا حسن غننا اغنية اخرى !

ويتكىء حسن بمرفقه على الارض ، وتندفق من قلبه الحزين — بعد لحظة تأمل طويلة — اغنية شعبية يرتفع بها صوته الحنون . والسنة اللهب امامهم في رقصها المجنون ، تعبث بها الرياح الخوافق .

وتنطوي ام بديعة على نفسها في الفراش ، تحت الدثار الثقيل : محنة ، والله محنة ، لن اخلص منها الا في القبر . — والى القبر تتبعوني ؟ الى القبر . تصوروا اني مت ! — اوه من اعمارنا على عمرك المديد . — لا لا ، هذا لغو ! القبر المظلم المروع ، يا الهي ! والباب اليمين الى الجنة ، والحديقة الخضراء والاشجار العالية ، وتمر تحتها انهار العسل والخمر ، والباب الشمالي الى الجحيم ، والنار تشتعل وتلتهم الاجساد والجلود تحترق ، وتتعذب الارواح ، اللهم عفوك وغفرانك ، اللهم عفوك وغفرانك ، وبنو آدم يتقاتلون على التافه والقيم ، نعم نعم مساكين بلا روية . الدنيا تسوى شيئاً ؟ فلساً احمر ؟ خائبين غداً موت ، وكل ما تعلمون يذهب معكم الى القبر ، واليه ترجع الامور ، الله الواحد القهـار ، اوه غداً ايضاً . كل يعلم غداً . انا كبرت ، عجزت . لم تبق فيّ مرة ، خذوا مصرفكم ، خذوا حسابكم ، دعوني بسلام . . — اوه امي لمَ تكونين قاسية ؟ — والله عجيب ، البيت بيتكم ام بيتي ؟ — بيتك ، وكلنا ملك يديك ! — نعم نعم صحيح قه قه قه ، قه قه قه . اوه هاتي المنديل بديعة ، قه قه قه ، المنديل المنديل ، اريد ان ابصق ، لا استطيع الكلام ، اما ترين . قه قه قه قه . احترقان احترقان .

وتتناول منديلها وتبصق فيه ، وتدسه تحت الوسادة ، وتعود الى تهويمها : كل يوم كل يوم ، اقعدي فكري ماذا يجب ان تقدمي لهم في الغد . اليوم بطاطا والامس طماطم وقبل الامس قرنابيط ، وماذا نصنع غداً ؟ وكل يوم عند الفجر يقف بجسم البغل في باب البهو ، ممقوت كريه قذر ، وبصوته المنكر — خانم ماذا تريدون اليوم ؟ ذو الوجه المشؤوم ، لا يمر يوم دون نزاع ، آه لو استطيع فقط ان اصفعه على ذلك الوجه الصفيق بضع صفعات ، طراق طراق طراق ، ويهدد قلبي — هيا خذ حوائجك واخرج ، لا تريني هذا الوجه بعد اليوم ! وجه البوم ، وجه الشؤم ، ولكن اين الطباخون ؟ كلهم اسياد ، من يجرأ ويكلمهم . — خانم ، ماذا تقولين ؟ وابتسامته المقيتة الصفراء . — اوه ، اصبر لا ترعجني ! اشتر ربع كيلو لحم لا ، نصف كيلو . ربع لا يكفي ، وكيلو طماطم ، كثير ؟ لا لا ، نعم نعم ومعكرونة ، عندنا علبة لا تطبخها كلها سمعت ؟ لالا كبة برغل ، احسن احسن ، من زمان لم نأكل كبة برغل ، وفاصوليا يابسة فهمت ؟

— نعم اروح ؟ - هاك ديناراً وروح ، راحت روحك .

وتتقلب في فراشها .

— هيا بديعتي ، اعطني قبلتي بسرعة ، يجب ان انام لانهض مبكراً . غداً اشغالي كثيرة !

وتميس بديعة في الغرفة بغلالة النوم الرقيقة الشفافة ، وتعانق زوجها الواقف بمباذله الحريرية عند الباب المتوصل بين مخدعيهما ، ويتبادلان قبلة تقليدية باردة ، ويذهب كل منهما الى فراشه . .

ويترنح طلال في دهليز مظلم طويل من دهاليز القصر المنيف ، ويتحسس الجدران الباردة الملساء ، في طريقه الى غرفته : شش ، شش ينام ، الكل ينام كالدجـاج ، شش شش ، — كم الساعة الآن ؟ — لا ادري ! اوه هؤلاء الحراس الاغبياء — مثل البارحة في مثل هذه الساعة بالذات ! يقضون كل عمرهم في متابعة عقارب الساعة ، ها ها هاه ، ماذا تنفعكم معرفة الوقت ؟ الليل ليل ويطول حتى الصباح ها ها هاه حتى الصباح ، لا اكثر ولا اقل . مساكين يهددون ، وفخرية قابعة في زاوية من البهو ترتجف ، مسكينة ، مساكين ، كلهم مساكين الفقراء ، فخرية ، عيناها الدعجاوان وقامتها الفارعة وشعرها الاسود السبط ، اين فخرية ؟ الم تنتظرني ؟

— لو تعلمين اين كنت الآن ؟ في احضانها ، نعم في احضانها هي غريمتك الجميلة الشقراء ، نهداها العاجيان وعليهما آثار فمي حمراء ، بقع حمراء ، بقع حمراء كلسعات الزنابير ، — اوه لاتعضي ، لاتعضي ! ها ها هاه ، فمك يدغدغ ! يا الله تعالي فخرية ، تعالي اخلعي ملابسي ، تعالي معي ، انت نظيفة وانا احبك وحدك ، انا احب الفقراء جميعهم ، انا لا احب ليلى ولا غير ليلى ، ارستقراطيات فارغات . . ها ها هاه اتصدقين اني احبها ؟ ابداً ابداً ، اقسم لـك برأس والدي العديم الرأس ، برأسه الفارغ الاجوف . ها ها هاه .

وتهز فخرية من الظلمات كالشبح ، فيجفل طلال ثم يضحك :

— شش شش ينام ، الكل ينام ها ها هاه ، كالدجاج ، شش شش ، تعالي فخرية ، تعالي معي ، تعالي الى غرفتي .

وتتبعه فخرية مطرقة ، مرتبكة . تتعثر في الظلام . .

بغداد عبد الملك نوري

شمعة

الى الاستاذ البير أديب

●

ذوبي مع الآهات ذوبي يا شمعة العمر الكئيب
الليل حولك جاثم يلهو بأوتار النحيب ..
والذكريات مواكب تترى تطل مع الذنوب
فيصدها النسيان ثم تعود في شك مريب
تجثو على آفاق نفسي مثل احلام الغروب

***

يا فكرة صفراء تغمرني بأنفاس المغيب
لون الحنين الغامض المجهول في هذا الشحوب .
ومضاتك التعبى تذكرني بألحاظ الرقيب
ولهيبك الوضاء يغريني بألسنة اللهيب ..
اين الشعاع النرجسي ؟ واين انفاس الطيوب
وقصيدة الذكرى تُرى خطرت على بال الحبيب ؟
بحت اناشيد الهوى وانشق صدر العندليب
ويكاد شاعرك الطروب يغيب في الصمت الرهيب ..

***

ذوبي فهذا الوجد مطوي على سر غريب
ما انت الا رعشة المجهول في افق رحيب
انت ابتهالات الحيارى وابتسامات القلوب ..
خيط المنى يزداد طولاً لا تبالي بالخطوب
فالنجمة العذراء لا تخشى من الوحش الغضوب
حسب الشموع البيض ان تفنى مع الهمس الطروب
وتغيب في النجوى لتلمع فوق ابراج الغيوب ..

***

ذوبي وعودي للوجود بذلك الوهج الرتيب
وتدفقي نوراً على نور وحسبك ان تذوبي
واذا سئلت عن الكوامن واللواعج لا تجيبي
لا تأبهي ابداً لعميان المفارق والدروب ..

مصطفى عبد ربه

بقلم الاستاذ فارمر

الموسيقى والموسيقيون في الف ليلة وليلة

ترجمة حسين نصار

ليسانسيه في الآداب

تأثير الموسيقى

كانت اعظم صفة يمدح بها الفنان العربي هي تشبه موسيقاه بمزامير النبي داود . وكانت العبارة الجارية على الالسنة في « ألف ليلة وليلة » هي : « صوته يشبه مزامير آل داود » وانها لعبارة تبين مدى تقديرهم لتلك المزامير .

وكانت العبارة الثانية التي يمدح بها المغنون تشبيه غنائهم « بالتغريد » وان روعته « توقف الطير في كبد السماء » . ويصرح القرآن بأن الطير كان يوافق داود في التغني بمدائح الله وتسبيحاته ، وبهذه الصورة اعتبروا تغريد الطير موسيقى شبيهة بموسيقى داود مؤلف المزامير ، واستدلوا بموت الطير في اثناء سماعها الموسيقى على « سحرها القاتل » ، وشاعت عبارة « يقتل طرباً » في صدد الكلام عن الموسيقى في الادب العربي .

وليس الموت عند سماع الموسيقى بنادر في القصص العربية ، ولقد وقع فعلاً في « الف ليلة وليلة » في حكاية البائسين الثلاثة » التي يدعى ان راويها هو العتبي . اما الاغماء ، فكثير ، وقد ظهر هذا في حكايتي « عشاق المدينة » و « مفلس بغداد » .

ولن نستطيع ان نفهم هذه اللغة المبالغة في « الف ليلة وليلة » وغيرها من الكتب عن تأثير الموسيقى ؛ الا اذا فهمنا الفهم كله ما سبق لنا قوله . فقد صرحوا بأن احد الموسيقيين كان يستطيع ان يوقف المتحرك ويحرك الساكن وأن آخر كان يجعل من الغبي ذكياً ، وهي اشارات ومبالغات لطيفة . ومع ذلك فليس الخيال المحصن او المجاز هو الذي دفع الراوي ليقول : « انها ترقص الحجر الجلود » او ان الحجرة رقصت من فرط السرور ، ولكن ذلك القول يرجع الى نوع من تقديس الموسيقى . وينتشر هذا التصور في الادب العربي الذي يتناول الموسيقى ، كما يظهر في « الف ليلة وليلة » في غالب الاحيان . ولعل اجل تلك التخيلات ما يدور حول الآلات الموسيقية ويضفي عليها المواهب الانسانية .

فكلمة « العود » تدل على انه مأخوذ من الخشب ، ولكن العرب ارتضوا بالرأي القائل ان صوته يرجع الى ان الخشب امتص تغريد بعض الطيور التي وقفت عليه حين كان غصناً في احدى الاشجار . ولذلك السبب يغني شاعر « الف ليلة وليلة » قائلاً :

لقد كنتُ عوداً للبلابل منزل ... أميل به وجداً وفرعي أخضرُ
ينوحون من فوقي فعلمت نوحهم ... ومن أجل ذاك النوح سري مجهر
رماني بلا ذنب على الارض قاطعي ... وصيرني عوداً نحيلاً كما تروا
ولكن ضربي بالانامل مخبر ... بأني قتيل في الانامل مصبر

او يصرح في موضع آخر : « أنّ العودُ وردنّ ، ولاماكنه القديمة قد حنّ ، وقد تذكر المياه التي قد سقته ، والارض التي نبت منها وتربى فيها » .

وكان الفلاسفة والعلماء العرب يتصورون الموسيقى جزءاً من النظام الكوني ، فربطوها بتصوراتهم اللطيفة عن « الرباعيات المجتمعة » التي تغنت بها المغنية في « حكاية نور الدين ومريم الموادة » .

وهذه الفكرة قديمة جداً ، ولكن الكندي (المتوفي عام ٨٧٤ م) في العصور الاسلامية وصل بها الى نظام شامل . اما « الف ليلة وليلة » فلا تزيد على الاشارة اليها ، وان كان يوجد في « حكاية ابي الحسن وجاريته تودد » من المادة ما يسمح لنا برسم تخطيط يبين لنا ارتباط الموسيقي بالامور الكونية ارتباطاً ثابتاً غير

الرباعيات المجتمعة

أوتار العود	البم	المثلث	المثنى	الزير
العناصر	الماء	التراب	الهواء	النار
الامزجة	بارد رطب	بارد جاف	حار رطب	حار جاف
الكواكب	القمر	زحل	–	الشمس
الابراج	السرطان العقرب الحوت	الثور السنبلة الجدي	الجوزاء الميزان الدلو	الحمل الاسد القوس
الروائح	–	الورد	الريحان	–

متنوع . وليس تصنيفُ الابراج بتسق في « الف ليلة وليلة » ، وانما هو امر مسلم في نظر تودد الفخور بمعلوماتها .

ونرا من هذا التصور نظام خاص وأخذ كل صوت ايقاعي او نغمي صورة خاصة به . وسيطرهذا النظام على الموسيقى العلاجية ، ولكن لا بد ان نسبة العمليات المخفقة كانت مرتفعة في الجداول الكثيرة المتعارضة التي وصلتنا .

الموسيقيون في الف ليلة وليلة

الموسيقيون

الذين ذكرتهم « الف ليلة » محترفون اتخذوا الموسيقى مهنة لهم ، ونستطيع ان نصنفهم في اربعة اقسام : المغنون ، والمطربون ، المغنيات ، والقيان . وكانوا يحضرون في البلاط في ساعات خاصة تعرف باسم « النوبة » ، فيعزفون من وراء ستار في حجرة خاصة ، كما يقول لين . وتذكر « الف ليلة » ان احدى هذه الستائر كانت من « الديباج وشراريبها من الابريسم وحلقاتها من الذهب » .

ومغني « الف ليلة » مغن ماهر وموسيقي بارع كان ينتظر منه ان يتحلى ببعض المواهب الاخرى ، كالمواهب المطلوبة في النديم ، مثله في ذلك مثل المغني الاوربي في العصور الوسطى . وقد نال معظم المغنين الذين قدمتهم لنا « الف ليلة » — ان لم يكن كلهم — حظوة كبيرة في البلاط ، مما جلب لهم مرتباً ثابتاً ، وهبات متكررة تمثل ثروة صغيرة في ذاتها في اغلب الاحيان .

وسمي المطرب « الآلاتي » بهذا الاسم في اللغة العربية لانه يعزف على « آلة الطرب » او « آلة اللهو » فاستعملوا ذلك اللفظ لتمييز الموسيقيين الذين كانوا مطربين « آلاتية » في مستهل حياتهم وقد ظهر المطربون في قصور الاشراف ايضاً ، ولكن اسم « المطرب » لم يكن وقفاً عليهم ، وانما اطلق على من هو اقل درجة منهم من الموسيقيين المدنيين او المتجولين الذين كانوا يعزفون خارج المنازل في الافراح بالطبل والزمر . اما المغنية فكانت في الغالب حرة او عتيقة تلقت مبادىء فنها عندما كانت قينة ، او التقطت تلك المبادىء من مكان ما . وكانت المغنية تحيي الحفلات الخاصة والعامة في الاعياد المدنية والدينية بالعزف على الطنبور .

وكذلك كانت القينة مغنية ، ولكنها مازالت جارية . ويندر ان تطلق عليها « الف ليلة » لفظ « قينة » وانما تسميها في غالب الاحيان « مغنية » او « جارية » . وكانت تتلقى تدريبات خاصة في الغناء ثم تشق طريقها الى عائلات الاشراف والطبقات الغنية سواء عن طريق التجارة الخاصة او عن طريق سوق الرقيق .

وكان ما يحدد ثمنها مواهبها وجمالها الجسدي ، ولكننا يجب ان نذكر قول سعدي : « الصوت العذب احسن من الوجه الجميل » .

وتدل « الاغاني » و« الف ليلة » على ان بعض هؤلاء المغنيات كن يأخذن هبات عظيمة . فانهن وجدن الاحترام والتقدير السامين ، خاصة اللائي لم يتلقين دروسهن في سوق الرقيق ، وانما نشأن في بيوت مواليهن . وقد كانت صور هذه الفتيات تزين قصور مواليهن على الرغم من تحريم الاسلام لذلك .

وتاريخ بعض هؤلاء الموسيقيين المحترفين ذو اهمية عظيمة ، اذ يكشف لنا عن الدور الكبير الذي لعبوه في حياة الشرق العربي العائلية والاجتماعية . ولهذا السبب اورد هنا بعض التفاصيل الواردة في « الف ليلة » . وقد تبين لي بعد جمع القصص ان كل الموسيقيين الرجال المذكورين في « الف ليلة » تاريخيون وليسوا بخرافيين .

واول هؤلاء الموسيقيين يونس الكاتب (المتوفي ٧٦٥ تقريباً) بطل « حكاية يونس الكاتب والوليد بن سهل » التي يغني فيها مع تلميذته امام الامير الوليد . ويطلب يونس ٥٠٠٠ درهم في مقابل التنازل عن جاريته ، فيعطيه اياها الامير مع هبة مالية اخرى . ولما صار الامير خليفة عام ٧٤٣ غنى يونس في بلاطه بدمشق .

وثانيهم ابو اسحاق ابراهيم الموصلي (المتوفي ٨٠٤) مغني بلاط الهادي وهارون ، ويظهر ابراهيم في « الف ليلة » في « حكاية ابراهيم الموصلي والشيطان » ، اذ يزوره الشيطان ويكنى «أبامرة» ويغني له غناء عجيباً ، كأن « الابواب والحيطان وكل ما في البيت تجيبه وتغني معه من حسن صوته » . فيذهب ابراهيم الى القصر فوراً ، ويردد الموسيقى التي سمعها للخليفة هارون . اما كتاب « الاغاني » — الذي اشار ايضاً الى القصة — فصرح باسم الزائر العجيب ، وسماه « ابليس » . ونقرأ عن ابراهيم في بعض المواضع الاخرى ، فهو مؤلف « محبي المدينة » ؛ وهو في « حكاية نور الدين علي وأنيس الجليس » ، وهو رسول الخليفة هارون في « حكاية عبد الله بن فاضل واخوته » تلك القصة التي تبين مدى التقدير الذي تمتع به هذا المغني في البلاط .

ثم نصل الى ابي اسحاق ابراهيم بن المهدي (المتوفي عام ٨٥٩) الاخ الاصغر للخليفة هارون . وكان ابراهيم ذا مهارة ملحوظة في ذلك الفن ، على الرغم من عدم احترام المسلمين للاشراف الذين يندمجون في الموسيقى . ونقرأ عن مخاطراته في « حكاية ابراهيم ابن المهدي واخت التاجر » حيث يبرهن بالعزف على العود على خطأ احدى القيان في عزف « طريقة » خاصة . وتحتوي « حكاية

ابراهيم بن المهدي والحجام » على قصة القبض عليه ثم اطلاق سراحه بسبب محاولته اغتصاب الخلافة. ولكن الحكاية تخطىء فتدعي ان سبب القبض على الامير عام ابراهيم الموصلي، اذ توفي المغني العظيم قبل ذلك بعشرين عاماً.

اما اسحاق بن ابراهيم الموصلي (المتوفي ٨٥٠) فكان اعظم الموسيقيين الذين ظهروا في العصر الذهبي، وتصفه « الف ليلة » بأنه « بارع هذا الشأن (اي الموسيقى) ». وتصوره لنا « حكاية اسحاق الموصلي » التي تروي قصة هروبه مع خديجة قينة الحسن ابن سهل والزنبيل المشهور بعض التصوير. وينسب كتابا « الاغاني » و« مطالع البدور » نفس القصة لابيه، ولكن ابن بدرون ينسبها لاسحاق. وكذلك يمثل اسحاق واحدى القيان دور البطولة في مغامرة اخرى في « حكاية اسحاق الموصلي والتاجر ». واخيراً توجد « حكاية اسحاق الموصلي والجارية وابليس » التي تعتبر قطعة موسيقية اخرى مع الشيطان.

ومن الموسيقيين المشهورين المذكورين عبيد الله بن سريج (المتوفي عام ٧٢٦ تقريباً) ومعبد بن وهب (المتوفي عام ٧٤٣) اللذان اشتهرا بتأليف الاغاني. ويظهر في « الف ليلة » كذلك مغنيان آخران قليلا الاهمية، ولكنها تشير اليهما اشارة عرضية، هذان المغنيان هما صدقة بن صدقة وزرزور الصغير وورد اسم الاول في « حكاية ابى الحسن الخراساني » حيث يقال ان صدقة كان مع الخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان عندما اقتل المتوكل عام ٨٦١. ولم يرد اسم هذا المغني في كتاب الاغاني « او ما شابهه من كتب، ولعله من احفاد ابي صدقة مسكين، احد مغني بلاط هارون، واخو احمد بن صدقة الذي كان مغنياً اثيراً لدى المتوكل. وكذلك لا يذكر كتاب « الاغاني » زرزوراً الصغير، ولكن وجود زرزور الكبير في بلاط الخليفة المعتصم (المتوفي ٨٤٣) يرجح وجود زرزور الصغير، الذي لا تذكر « الف ليلة » عنه الا انه غنى اغنية.

اما الموسيقيات في « الف ليلة » فلم يذكرهن التاريخ، اللهم الا واحدة. ومع ذلك لا يوجد ما يدعونا لعدم التعرض لهن، خاصة وانهن يقدمن لنا صورة جميلة عن مواهب هؤلاء الفنانات المختلفة، وعما كان ينتظر منهن في تلك الايام، بل يمكننا ايضاً من معرفة كيفية اطلاق لقب « عالمة » (الجمع : عوالم) على القينة في مصر الحديثة. واليك ابرز الموسيقيات في « الف ليلة ».

اول هؤلاء الموسيقيات « نُعم » التي باعها طفلة مع امها كوفي يسمى الربيع، وكان نشأها مع ابنه نعمة الله. وعني بتثقيفها « وقرأت القرآن والعلوم، وعرفت انواع اللعب والآلات، وبهرت في المغنى وآلات الملاهي » وكانت النتيجة زواجها من نعمة الله ولكن جمالها النادر ومواهبها الفذة جعلت الحجاج، حاكم العراق العربي الداهية يحتال في الاستيلاء عليها لاهدائها الى الخليفة عبد الملك (المتوفي عام ٧٠٥). ولكن حسن حظ زوجها جلب لها خاتمة سعيدة.

وثانيتهن « البدر الكبير » جارية مثقفة ايضاً، ولكنها نُشئت في قصر جعفر بن الخليفة موسى الهادي (المتوفي ٧٨٦) و« كانت في غاية الجمال » لا يوجد في عصرها أحد « أعرف (منها) بصناعة الغناء وضرب الاوتار ». ثم وقع محمد الامين - الذي صار خليفة فيما بعد - في غرامها، فاختطفها رغم أنف جعفر، ثم منحه الامين زورقاً مملوءاً بالذهب والفضة ترضية له، فصفح عن قريبه الخاطىء.

والثالثة « قوت القلوب » التي اشتراها رجل يدعى ابن القرناص بخمسة آلاف دينار من سوق الرقيق، ثم باعها للخليفة هارون في مقابل ضعف ذلك المبلغ. وكانت « تعرف جميع العلوم والفنون، وتنظم الاشعار، وتضرب على جميع آلات الطرب ».

أما « أنيس الجليس » فكلفت مالك البصرة عشرة آلاف دينار ولعلها كانت تستحق كل مليم من هذا المبلغ، اذ يؤكدون لنا أنها « تعلمت الخط والنحو واللغة والتفسير وأصول الفقه والدين والطب والتقويم والضرب بالآلات المطربة ». والافضل من ذلك كله أن لماها كان كالرحيق المختوم.

وآخر من نذكرهن « تودد » التي فاقت كل الموسيقيات الأخر في مواهبها لو صدقنا « ألف ليلة ». وكانت « تودد » قينة أبي الحسن البغدادي، فأذهلت مواهبها العجيبة وثقافتها العالية الخليفة هارون اذ ادعت انها متبحرة في النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة وفن الموسيقى وعلم الفرائض والحساب والقسمة والمساحة وأساطير الاولين والقرآن العظيم والاحاديث الشريفة وعلم الرياضة والهندسة والفلسفة وعلم الحكمة والمنطق والبلاغة، بارعة في الغناء والرقص.

أما محبوبة، وهي الشخصية التاريخية من بين مغنيات وقيان « ألف ليلة » فتنتسب الى البصرة. وتذكر « ألف ليلة » أن عبيدالله (ابن عبدالله) بن طاهر (المتوفي حوالي ٩١٢)، أحد الموسيقيين المبرزين، اهداها الى الخليفة المتوكل (المتوفي ٨٦١). ومن المرجح ان عبدالله ابن طاهر (المتوفي ٨٤٤) هو الذي أهداها كما يذكر كتاب « الاغاني » وتذكر « ألف ليلة » أنها « كانت فائقة في الحسن والجمال وكانت تضرب بالعود وتحسن الغناء وتنظم الشعر وتكتب خطاً جيداً ».

القاهرة — حسين نصار

بين الحلم والتجربة

بقلم يوسف الشاروني

مساء الاحد ٩ من سبتمبر (ايلول) عام ١٩–

هذا هو موقف كير كجورد من ابرهيم ، موقف الشاعر من البطل، وضرورة كل منهما للآخر. فالشاعر يظل ينتظر حتى يقبل البطل فيبدأ اغانيه حول موضوع يكون الغناء ضرورة له، والبطل في حاجة الى الشاعر كضرورة من ضرورات بطولته .

وهنا يربض الفارق العميق بين موقف الشاعر وموقف البطل. فموقف الشاعر موقف تعبيري فقط قائم على الاعجاب ، اما موقف البطل فهو موقف الفعل الخالص القائم على الايمان . ان الفعل مرتبط بالايمان ، والبطل هو وحده رجل الايمان ، و كل من يؤمن فقد استحال الى بطل .

ان الشاعر لا يستطيع ان يكون البطل، لان موقفه كشاعر بازاء البطل ناتج عن الاعجاب الذي هو بمعنى ادق، الاحساس بأن آخر يفعل ما لا يستطيع هو ان يفعله . كذلك كان، موقف كير كجورد من ابرهيم .

فاذا عرفنا ان موقف البطل مرتبط بالايمان ، عرفنا ان موقف الشاعر مرتبط بعدم القدرة على الايمان .

ان الشاعر يلمس الايمان، يقترب منه ويدور حوله لكنه لا يؤمن. وموقفه التعبيري من الوجود قائم على هذا الاساس فليست لحظات تعبيره سوى لحظات اعجاب او دهشة وانفعال ، وهذا كله ليس في مجال الايمان، لان المعجزة توجد في قانون الايمان وهي لا تثير دهشة ولا فرحاً مفاجئاً الا لغير المؤمن.

مساء الاربعاء ١٢ من سبتمبر

اني اريد التعبير ، التعبير الفني بأي ثمن . وليس التعبير الفني مجرد كلمات ولا اعترافات ، بل هو وجود الصور والمعاني والقالب الى جانب الالفاظ . كل ما لدي احاسيس ليست تستطيع ان تنتظم، وأنا اجاهد عبثاً في ان اجمعها حول قالب او معنى . انها تنطلق من مكامنها اللاشعورية في زحمة لتفر مني الى حيث لا ادري .

اريد التعبير الفني لان الجهد الذي اعانيه وقت تكامل العمل الفني هو الذي يطمئنني على ان حياتي لم تصبح خراباً تاماً بعد . ورغم هذه الرغبة الشديدة ، ورغم ان الاشهر تمر سراعاً ، فأنا لا ازال جالساً فارغاً انتظر .. وتمر امامي اشباح تغريني بالعدو وراءها لكنها ما تلبث ان تختفي . لم تعد في روحي قدرة على تجسيد انفعالاتي ولا على السيطرة عليها واخضاعها لقالب منتظم . واصبح الطريق السهل امامي هو ان اترك نفسي الى اعترافات في يومياتي ، وهذا لا يتطلب انتظاماً ولا جهداً ارادياً لخلق قالب ما .

لكن بي حاجة تدفعني الى عدم الاكتفاء بهذا النوع من السرد المنطلق الذي يضايقني مجرد تقيؤه .

اني احس ان هناك ثروة تضيع مني وكان يمكن « استغلالها » كمواد لاعمال فنية ناجحة . ثمة حاجة تدفعني دفعاً ملحاحاً الى الحصول على المنتظم من خلال المبعثر والمفكك في نفسي الجياشة ابداً ، والمنفعلة ابداً . لكنني لا احصل على غير الرغبة في ذلك ، ثم الاحساس العميق بالعجز والتعطل .

مساء الاحد ٢٣ سبتمبر

كنت استمع بالامس الى الآله بيتهوفن . كنت استمع الى السيمفونية التاسعة لخامس مرة في مدى اسبوعين، وكلما سمعتها اشتد بي الظمأ الى استماعها ثانية وثالثة وما لا نهاية له من المرات . هذا الانسان عاش حياته كاملة وعاش حياة الآخرين والانسانية والوجود كله. ان كل من عاش تجربته كاملة استطاع ان يعبر عنها كاملاً ، ان التعبير هو كمال الوعي بالتجربة .

في التعبير، نحن، نلخص كل فصول التجربة التي تلقيناها ، وفي التعبير نقوم بمحاولة ايجابية ضخمة : ذلك اننا نحمل الآخرين على ان يعيشوا تجاربهم ايضاً .

وعلى الفنان ان يتعلم من ممارسته الفنية كيف يمارس الواقع ، فلا خلاف بين ممارسة الفنان لعمله الفني وممارسة الانسان للواقع الحي ، من حيث المنهج على الاقل . الفنان المجرب — كالرجل المجرب — يعلم انه قد ينتظر اسابيع بل شهوراً من اجل ان يحس تلك الحماسة الدافقة التي تحيل العالم امامه فجأة الى قصص واساطير، وهو قد يتألم لهذا الانتظار ، لكن هل عليه الا ان يرغب ويرجو وينتظر ؟ وهو يعلم ان الفكرة الشاردة التي قد لا يكون لها كبير خطر في وقت ما قد تصبح فيما بعد موضوعاً رئيسياً من مواضيع ابداعه ، كما انه يدرك تماماً انه حين يبدأ عمله الفني فهو معرض لتغييره وتبديله . وعندما يريد ان يجسم افكاره وعواطفه في اداة ما فان امكانيات جديدة ما كان ينتظرها تنبثق من اتحاد الفكر والعاطفة بالاداة الحسية ، فهو يعدل ويبدل من اجل اخراج الوضع الملائم الذي يهدف اليه .

وهذا التغيير والتبديل لا يزعجه كثيراً ، بـل انه ليرقبه في قلق وفرح . كذلك لا يزعجه كثيراً ان ينشل ، فاذا احس انه انتهى الى غير النتيجة التي يرتضيها فهو لا يتردد في ان يحطم عمله لعله يبدأ من جديد .

وهو مؤمن بالزمن ايماناً لا حد له ، فالزمان يحمل له منـابع حياته التي يحياها ، وفي المستقبل يكتنز ثروته التي لا تقدر . فاذا بدأ عمله الفني اخلص له كل الاخلاص ، واخضع كل شي في حياته سواء كان تافهاً ام خطيراً من اجل التأدي الى نجاح عمله الذي بدأه . ولا تعود الاشياء تتقيم امامه الا بمقدار ما تؤديه من نفع لاتمـام هذه الفكرة او نضوج ذاك البناء . حتى اذا ما بلغ نهاية الطريق نظر مرة الى ما قام به فاذا احسه فاشلاً حطمه واذا احسه ناجحاً فرح به واحبه ، ليس ذاك الحب الذي يوحي بالقناعة والاكتفاء ، بل ذاك الحب المندفع . ولا يلبث ان ينسى انتصـاره الاخير ليبحث عن انتصار جديد . لهذا كان الفنان هو ذاك الغاوي الاكبر .

مساء الاحد ٣٠ من سبتمبر

ما اخطر انهيار العالم المتماسك امام الفنـان ، الفنان الذي تعود ان يرى من الجمادات الصامتة حتى الخفقات والخلجات تماسكاً وترابطاً . وفجأة انهار من امام عينيه هذا النوع من التماسك القائم بين الاشياء وبين الافكار وبين الاشياء والافكار معاً . انه يحس كأنما العالم فقد منطقه ، وكأنما انعدمت المعاني التي يحيا من اجلها .

وهنا يحتاج الفنان الى جهد بالغ لكي يدرك — ولو في غموض — ان هذا الترابط الذي يراه بين الاشياء ليس هو جوهر الحيـاة بل هو جانب من جوانبها امتاز هو بمواهبه ومرانه ان يلمحه ويكشف عنه ويعبر لنا عنه ، وان في الحياة جوانب اخرى غير مجرد اكتشاف الانغام والالوان التي تربط بين الاحداث والاشخاص والاشياء . والفنان الذي لم يكن قد عود عينيه على ان تشهدا شيئاً غير القصص والاساطير خلال العالم المزدحم المصطخب ، يرى نفسه قد افتقرت فجأة اذا هو فقد في لحظة ما هذه الميزة ، فيهتت الاشياء جميعـا امامه ولم يستطع ان يدرك ان الفعل نفسه هناك والحركة والحياة .

عليه ان يقاسي وان يتأنى حتى يتعلم كيف يرى الاشياء متفككة احياناً ، وان الترابط القائم بينها ليس دائماً ، وعليه ان يعرف ان هذا الانسجام والتسلسل والشكلية التي تقوم عليها الاشياء ليس الا انعكاساً لروحه الحساسة التي تخلق هذا الانسجام والتسلسل والشكلية وانه اذا تفككت روحه وانحلت تفككت كل الصور والانغام .

انه يعلم ان الابداع الفني ضروري له ضرورة الطعام للناس ، لكن عليه ان يعود نفسه الجوع والصمت أياماً بل أشهراً اذا هو اضطر الى ذلك . وعليه الا يجزع ويستعجل خلق قوته من جديد . وعليه ان يمارس أشياء اخرى بنفس الاستمتاع الذي كان يمارس به عمله الفني عندما تنضب مواد أنغامه وصوره حيناً من الزمان وأن يخلق عملاً آخر بنفس السرعة حين يحس ان « البطالة الوجدانية » تجتاح فترة من فترات حياته . فاذا لم يستطع ان يأخذ نفسه بهذا الفهم الصحيح لحياته كانسان الى جانب حياته كفنان ، فانه سيتعرض لأزمات روحية شدّ ما يكون خطرها عليه .

نحن نسمع الكثيرين يتحدثون عن الآلام التي يعانيها كل فنان وهو يقوم بعمله الفني ، وعن التجارب القاسية التي تربض وراء هذه الثروة الضخمة التي يكونها الفنان بنفسه من كل لحظة من لحظات حياته ، وعن المعاناة المريرة التي يمارسها الفنان قبلما يخلق عمله وأثناء خلقه وبعد هذا الخلق . وهذا صحيح الى حد كبير . لكن ثمة ألماً اخطر يعانيه الفنان ، ذلك حين يحس بالجدب في روحه ، وحين يجزع اذ يرى العالم يتفكك امامه ، فينظر الى اللحظات السابقة وكأنه فعل فيها المعجزات حيث هو اليوم لا يستطيع ان يؤلف بين صوتين او كلمتين . واذا كانوا قد شبهوا الفنان بالأم كثيراً ، فاننا نستطيع الاستفادة هنا من هذا التشبيه فنقول ان الام تتألم وهي تلد طفلها ، لكننا نعلم ايضاً كم من سيدات يكون المهن اعظم وأمرّ لانهن لا ينجبن اطفالاً وكم من محاولات يبذلنها في سبيل ان يبلغن ألم الولادة . ان الم العقم اهول الآلام وافظعها جميعاً .

ان الفنان احياناً ما تمر به لحظات فيها يفقد قدرته على القيام بعمل فني ، لكن عليه ان يأخذ نفسه بالصبر والاناة حين يجد نفسه متجهاً نحو هذه الفترة العصيبة . ان احساسه بالضيق ضروري للتخلص من هذه الفترة ومن اجل التأدي الى حياته الاولى حياة الخلق والتعبير ، لكن عليه ان يستغل هذه الفرصة فيعيش الحياة كما يعيشها الآخرون في تبعثرها وتفككها وانهيارها . وعليه ان يتذوق في مثل هذه اللحظات طعم الحياة اللاتعبيرية التي تكاد تكون فعلاً خالصاً وممارسة مباشرة للآخرين والاشياء والاحداث ، فوجود الهوة بين الحياة التي يحياها الملايين وبين حياة الفنان هي خطر حقيقي على الفنان وعلى عمله كذلك . ان عليه أن يأخذ نفسه بممارسة الحياة في صورها الاخرى ، حيث هي ليست مجرد التعبير الفني . بـل هي حركة ورغبة وتحقق .

والفنان يعلم انه يقوم بصفقة خاسرة دائماً ، فهو يبذل اكثر مما يحصل . انه يبذل من عواطفه وخلجاته في الوقت الذي نتوهم فيه

انه يحصل على معان او اثارات . وفي الوقت الذي تُحسب فيه انه قد حصل على التعبير يكون في واقع الامر قد بذل من جديد لهذه العواطف والخلجات . وهو حين يختفي وراء قناع التعبير ، ويقدم نفسه للناس ليحس احساس البغي التي تعرض انفس ما تملك المرأة على المارين عسى ان يعجب واحد او اثنان بهذا المكان من جسدها او ذاك . . ذلك ان الفنان بعدما يتألم ألماً اقوى من التعبير ويخرج للناس ما كتبه ، تراهم يهزون رؤوسهم وفي خير الحالات يصيحون : ما ابرعه ! نعم ما ابرع تألمه ! وهو يعلم ان هذه هي طبيعة العمل الفني بل « ميزته » . انه يحيل الالم الصارخ الى الم ناعم ، وما ابعد الفرق بين الالمين : ان الفنان يعاني الالم الاول ، الالم المهول المزعج لكنه حين يقدم فنه للناس فانه لا يقدم هذا النوع ابداً . انه يحس حاجته وحاجتهم الى المشاركة ، لكنه في سبيل ذلك يفقد الالم لديه أصالته ويستحيل الى نوع آخر . ويدرك ان الناس لم تشاركه آلامه ابداً بل شاركته « العمل الفني » وشاركته العناصر الجمالية التي لم يعرفها قط في تجربته الحقة الواقعية . وهو بادراكه هذا يزداد تألمه في نفسه ، ويزداد تبسماً للآخرين .

مساء الجمعة ٥ من اكتوبر

انه كل فنان في حاجة الى الذكريات والى التجارب الفنية والى التراث البشري معه . وهذا هو الخطر على كل من له طبيعة الفنان وليست لديه ادوات الفنان وضروراته الخارجية ، فهو يقترب من وضع قريب من الجنون ، لانه بطبيعته لا بد ان يفكر وان يتخيل وان ينتج فاذا لم تساعده ادواته على الانطلاق الذي يبغيه ويعلم ضرورته له فانه يجد نفسه في آخر الامر يدور حول نفسه . والكتب قد تعطيه الناحية الشكلية لتعبيره لكن تجاربه هي التي تعطيه المادة والشخصيات . فاذا لم تكن لديه القدرة على الانطلاق فسيشبه عجلة ترام او سيارة ظلت تدور حول نفسها بغير ان تدفع المركبة او السيارة الى المسير . ومهما كانت طبيعته من القوة فانه لن ينتج لنا في النهاية ادباً واقعياً يلامس الحياة بل سيخلق عالمه الخاص . ومهما كانت طبيعته من الغنى بحيث تستطيع ان تحيل ما يبدو للناس تافهاً الى موضوعات حية خصبة ، فانه سيجد نفسه في آخر الامر شديد الشوق الى ان يعيش تجارب جديدة ويرى بلاداً جديدة ويتعرف على افكار جديدة ، فلئن كانت طبيعته خصبة فهو يدرك انه سيصبح اكثر خصوبة وغنى . وفنان اليوم ، مهما كان ذا طبيعة علاقية ، هو في اشد الحاجة الى التراث الانساني حاجته الى التجارب الحية المتجددة ، والا انتج لنا ادباً متخلفاً من حضارتنا بضع مئات من السنين حيث يضيع بين زحام الفكر في القرن العشرين .

واذا كان لدى الفنان احساس دائم بالنقص في قدرته على التعمق والتعبير ، واحساس اشد بالنقص في استيعابه للتراث الانساني وفيما لديه من تجارب ، فانه ليستطيع ان يتحمل هذا الاحساس طالما هو يعلم ان ذلك يدفعه الى ان يكون اكثر جهداً في تعمق الامور واكثر حرصاً واقل غروراً في محاولاته التعبيرية ، ويشعره ذلك بان احسن اعماله انما هو العمل المقبل دائماً ، وان كل عمل هو مقبل عليه ان هو الا محاولة للدفاع عن النفس مما تتهمها به النفس .

ان الفعل يستوعب الجزء الاكبر من حياة الغالبية العظمى من الناس ، والفكر مرتبط لديهم اشد الارتباط بأفعالهم ، فهم لا يفكرون الا لخدمة الفعل : للعزم عليه قبل وقوعه او لتبريره بعد وقوعه . لكن الامر ليس هكذا تماماً مع الفنان . فهو مهما احس بغنى تجربته الواقعية الدافئة فهو لن يراها فعلاً وحركة فحسب ، بل سيرى - بحكم حياته واتجاهه - جوانب فكرية وتعبيرية ورمزية هي اجزاء ضرورية مكملة للتجربة لديه . والفنانون العظماء قد استطاعوا ان يسيطروا على جوانب الظلام في حياتهم وان يطووها تحت اجنحتهم وهم يعلنون انتصار الارادة الانسانية والرغبة الانسانية بمختلف الطرق وشتى التعابير : فيما قدموه للانسانية من صور وافكار ، في فرحهم المجنون ويأسهم المريض ، وفي اعمالهم التي قد بدأوها ولم يتموها لان الحياة صرفتهم عنها بضاياتها ومشاغلها او لان الموت اخمدها . ان سيمفونية شوبيرت التي لم تتم وقصة اخوان كارامازوف لدستويفكي واعمال فرانز كافكا وامثالها هي الاعمال الانسانية التي كان فيها الصراع واقعياً وبطولياً بين الرغبة في الحياة وظل الموت .

صباح الجمعة ١٢ من اكتوبر

بورانه وسأتم عامي الحادي والعشرين . . يومان وسأحتفل مع اصدقائي بعيد الخريف . سيقبلون الواحد بعد الآخر وعلى وجوههم ابتسامة رغم ما تحمل الحياة من ذكريات واعباء ومجاهيل . سيقبلون يا صديقتي الواحد بعد الآخر ، اما انت فلن تقبلي .

وسيجلسون جميعهم حولي يتحدثون ويتضاحكون ، وانا جالس معهم اتحدث واتضاحك ، وسأفتقدك بينهم يا صديقتي فلن اجدك . سأحس فقدك واضحاً قاسياً ومؤلماً للغاية ، سأريدك ولن توجدي .

سنحتفل بالخريف يا صديقتي وسنفرح . سنستمع الى انغام عذبة واشعار عبقرية ، وسيغمرنا ضوء القمر في تربيعه الثاني ويلفحنا

هواء الخريف الناعم الندي . لكن فرحتي مبتورة يا صديقتي . كلما علوت درجة ، كلما حصلت على جديد ، احسست ان فرحتي ناقصة ، ان ثمة انساناً كان يجب ان يشاركني كل خطوة من خطواتي حتى تكمل السعادة التي انشدها في هذي الحياة . لكنك مضيت عني والسعادة ما استمتع بها واحد ياحبيبتي .

وكلما خلصت من هذه التفاهات التي نهرب اليها من كل ما هو عميق رهيب ، تبدت امامي الحياة كوحدة رائعة ابداً ان تعود وتذكرتك يا صديقتي وانت توجدين في نفس المكان وفي نفس الزمان ، وقد مدنا العدم بيننا قبل ان يمتد هو بنفسه الينا . وتذكرتك وانت تسيرين مع الغرباء ، وانا اسير في طريق اعرف انه ضمني معك ذات يوم ، ثم تفرقنا يا صديقتي وما عدنا نلتقي ، والحياة واحدة ثم بعدها لن نعود نوجد .

وفي آخر الليل سينصرفون يا صديقتي ، الواحد بعد الآخر كما اقبلوا . . الى ان ينصرف القمر عني ايضاً . واجلس وحيداً في حديقتي الصغيرة القفراء ، وفي هذا الصمت سأذكر كل شيء . سأذكر انني لا استطيع ان افعل شيئاً لقلبي وهو يخفق في عنف كلما رآك ، بل كلما كنت اسير في طريق او اجلس في مكان ثم لمحت انساناً يشبهك خفق قلبي فاذا تبينت انه آخر سأذكر كيف ترتد خفقات قلبي تريد ان تعود الى انتظامها المألوف .

وعندما يحل بي التعب ، ويرهقني الاحساس بالعدم والصمت والفقد ، سأذهب كي انام ، ستمر بي صور عجيبة مضطربة وانا مقبل على عالم النوم . ثم تثقل اجفاني . وقد ارى حلماً اوحلمين ، وقد اذكر منها شيئاً وقد لا اذكر ، حتى افيق مع الصباح . وسأفتقدك يا حبيبتي لكنك لن تعودي توجدين . سأذكر انني فقدتك في هذه الزحمة ، فأمضي وانا احس ان ثمة شيئاً دائماً ناقصاً مني وأبداً لن يكتمل .

وسيمر عام في اثره عام ، وقد يحدث ان اعيش وقد يحدث ان تعيشي . وسأحتفل مع اصدقائي بعيد في اثر عيد . وقد يحدث ان تبهت صورتك على مر السنين بل قد تحترق تحت دفء ذكريات جديدة ، وينكمش ذكرى لقائنا وقسوة فراقنا بين هذه الزحمة من الذكريات والاحداث الجديدة . وقد لا ترين يا صديقتي سوى ان هذا انتصاراً للحاضر الجديد على الماضي العتيق ، وقد يكون هذا حقاً . لكنه في الآن نفسه يعني هذه الحقيقة المزعجة التي انتفض من مجرد ذكرها الآن : ذلك ان العدم ينسج نفسه حول الوجود العزيز الذي كان مني ومنك . وحين يلف العدم آخر خيط على هذا الوجود لن يعود يرهقنا صمت ولا فقد ولا حب ولا كره ، حتى ننام ملء جفوننا عبر العدم الكبير .

مساء السبت ٢٠ من اكتوبر

واذا كان على الفنان ان يتخذ موقفاً اخلاقياً ، فليكن موقفاً بلا حقد ، ولا كره من الاشخاص الذين يخلقهم في اعماله الفنية . واذا كانت لدى الفنان مهمة اخلاقية فلتكن هذه المهمة هو ان يجمل كل شخص — في عمله الفني — مقبولاً سواء أكان مجنوناً ام قاتلاً ام متعجرفاً ام محباً كريماً . ان كل تصرف يحمل معه وثيقة تبريره . ولسنا نفجأ ، ولسنا نكره ، ولسنا نحقد ، الا لاننا لم نطلع على وثيقة التبرير هذه . واذا وجدنا في قصصه او مسرحياته اشخاصاً يكرههم او يخاف منهم او يجعلنا نكرههم ونخاف منهم فمعنى هذا انه لم يوضحهم لنا بالقدر الكافي وبالتالي انه قصر في ادائه الفني . فالفنان مطالب بمهمة اخلاقية : ذلك الا يجعلنا نحب شخصية من شخصياته الا بالقدر الذي به تنسجم مع نفوسنا ، بحيث لا نحقد — بالرغم من ذلك — على الآخرين لاننا ندرك لماذا تأدوا الى اعمالهم وحيواتهم حيث ان الحياة العادية لا تتيح لنا ان نطلع على هذه التفسيرات . ان كثيراً من الكره والحقد يزول من العالم لو اننا تصفحنا وثيقة الاعتراف لكل ما يحدث ، ان كل فعل يحمل وثيقة تبريره ، وكل كراهية منا للآخرين ان هي الا تكاسل وبلادة .

تلك خطرات طافت بذهني هذا الخريف ، ذلك الفصل الذي هو اروع الفصول جميعها . ان الصيف في مصر فصل الموت والارتياح والكسل ، استوعب فيه اكبر مقدار من الكتب حتى اذا ما اقبل الشتاء ، ذلك الفصل الحي النابض ، بدأ العالم يتحول امامي الى اساطير وقصص ، وتنبعث الذكريات فيه كأنما هو اليوم الاخير . وابدأ ارى واسمع في كل لحظة وفي كل مكان ابطال ملاحم .

فالشتاء لم يعد في وجودي ذلك الفصل الميت من العام ، ولا الخريف ذلك الفصل الذي تتساقط فيه الاوراق وتجف . بل الخريف عندي هو مدخل الى الحياة ، الحياة القوية الهائلة التي يبعثها الشتاء في نفوسنا ببرودته وعواصفه وامطاره ورعوده ان كل شيء يتحول امامي من جديد الى الوان ذهبية واخرى في روعة الشفق . ان العالم يستيقظ في نفسي من جديد ، ان نفسي تزدحم باشياء غريبة وعديدة ، ان ثمة اصوات وكائنات تتسرب الى اعماقي كأنما في خفية ، انها تزدحم في نفسي وتندفن فيها مختلطة بي منتظرة يوم ميلادها .

القاهرة — يوسف الشاروني

معنى القومية العربية في الامتحان

بقلم محمد وهبي

☆

«القومية العربية»: هل هي حقيقة واقعة؟ هل لها وجود فعلي؟.

هذا موضوع طرقه كتاب كثيرون وعالجوه بوسائل وبراهين مختلفة منذ عهد مضى، حين كان الانتداب او الاستعمار الغربي في الاقطار العربية على أشده، وحين كان النهوض القومي في هذه البلاد في فجره. وقد أفضى معظم تلك الآراء الى الرد على هذا السؤال بالايجاب، استناداً الى ثبوت وجود المقومات الموجبة لهذه القومية، مما يتصل بروابط الماضي والحاضر والمستقبل، التي تعقد باتصالها العميق وحدة حقيقية لا يمكن الشك فيها. فتقاليدنا وعرفنا وعاداتنا التي تؤلف الدعامة والحجارة الاولى لبناء مجتمعنا الراهن، والتي لا حياة ولا طابع خاص يميز كياننا بدونها، ما هي الا من صنع الآباء والاجداد الذين أنشأوها مع الزمن وخلفوها لنا. وحاضرنا عامر بروابط التفاهم العقلي، وبالمصالح والمحن والآلام والهموم المشتركة، كما ان مستقبلنا لا يشكل في واقع تفكيرنا واحساسنا سوى طريق مستقيم واحد، رسمته آمال واحدة وارادة واحدة، وهذا بالرغم من جميع الاهواء الانكماشية الرجعية التي لا تؤثر في اتجاه هذا الطريق وانما تزيده وضوحاً وبروزاً للعين الواعية.

نعم، لقد عالج الكتاب العرب هذا الموضوع وأفاضوا فيه وأطنبوا، مقدمين هذه الادلة القوية، وكثيراً مثلها... على اننا نحب الآن ان ننظر في الموضوع من جهة اخرى، ونعني بالنسبة لقضية فلسطين بعد تطورها الاخير.

نريد أن نعرف ما اذا كانت هذه القومية التي كنا اثبتنا حقيقة وجودها بالادلة العلمية، قادرة على البقاء والصمود في وجه تيارات الايام وأعاصير الاحداث، وماذا لمسنا من كفاحها هذا حتى الساعة؟

فالحقيقة ان واقع القوميات لا يثبت ويتأكد الا بالامتحان وبالتجريب. فالامتحان يبعث الوعي الخامد من رقدته، والامتحان يبلور النزعات والميول والافكار المتلبدة، والمنطوية في عالم اللاوعي، وينقلها الى دائرة الوعي الواضح، حيث تستقطب وتتحد، وبالامتحان وحده، تتفتح هذه النزعات الدفينة الراكدة، وتتضافر على تكوين الارادة الخالقة المبدعة. بل ان الامتحان يؤدي احياناً الى انشاء الوعي القومي وتكوينه، واطلاقه في حيز الواقع بعد أن لم يكن شيئاً، ولم تكن له بذور او مقومات حقيقية تذكر. فكم وكم رأينا في التاريخ من قوميات تخلق، وتظهر فجأة للوجود بفعل التكتل والاتحاد والتضامن التي كانت تفرضها الازمات والاحداث الاجتماعية الخطيرة كالحروب. ومعظم القوميات الاوروبية التي نشأت على أثر حروب نابليون، مثال حي على هذه الحال.

وهذا الامتحان — او هذا «الكاشف» حسب لغة الكيميائيين — يتمثل في التيارات الخارجية المعاكسة التي تصدم هذه القوميات وهي في وضعها الاول البدائي، فاما ان تتغلب عليها بسهولة فتسحقها وتدفعها في حيز العدم، واما ان تتكسر على حدودها وتتحطم، وترتد فلولها الخاسرة معلنة وجود هذه القوميات، وحقيقة كيانها وجدارتها بالبقاء.

وهذه الاعاصير التي نعنيها هي الازمات والمشاكل الجماعية المشتركة التي تولدها الحروب، كما توجدها جميع انواع الطغيان والتحدي والاعتداء القابعة في معاني الاستعباد والانتداب والاستعمار، او التهديد بمثل هذه الاخطار الخارجية.

والقومية العربية عانت في العصر الحديث محناً وازمات جمة من هذا القبيل، فخرجت من اغلبها سليمة في مجمل كيانها، ولكنها لم تسلم في الواقع من الاصابة ببعض الرضوض البليغة، وبعض آثار التهشيم والتشويه: فمن وطأة الطغيان العثماني الذي خلف التفكك القومي والتقهقر الفكري لمدى عشرات السنين الى الوراء، الى الانتداب او بالاحرى الاستعمار الغربي، الذي لم يترك غير التفريق والتشتيت بين ابناء الوطن الواحد، وغير تسميم الافكار والعقليات، وخلق الاهواء المتضاربة والمنازعات المحلية الوضيعة، وغير اضعاف الاخلاق التي هي المقومات الاولى لحياة الامم والافراد، بما دعوه تمديناً، ولم يكن في حد ذاته سوى تغرير مضلل بقشور الحضارة الحقيقية.

وقد اجتاز الوعي العربي هذه الازمات والاخطار التي قاومته وجثمت على صدره كالكابوس ردحاً طويلاً من الزمن، وتوصل اليوم الى الخلاص منها والتغلب على معظم آثارها. غير انه لم ينج من هذه الحروب الحقيقية في اعمق معناها، الا ليقع في ازمة هي شر منها جميعاً، والا ليجد امامه خطراً هائلاً يتهدد كيانه بالقضاء

كلمات

☆

كلماتٌ همّت على ثغرها سكرى ، وحارت فلم تمسّ الشفاها
وسرت رعشة على صدرها الواهي فرفّت على يديّ يداها
وتلاشت وراء ستر من الليل فباحت بسرها عيناها
أيّ دنيا من أنجم واجمات شاردات تهيم في دنياها !
صغتها في دمي قصيدة شعر .. كيف تدري قصيدة معناها ؟
كلماتٌ همّت وأغضت على ثغرك ظلت روحي تحس صداها
إيه .. لا توقظي الذي نام منها أنا أدرى بها فقولي سواها !

بغداد — اكرم الوتري

الى غير رجعة ، وهو خطر الصهيونية بجميع مواحاها الدامية ، وما انتهت اليه من التطورات المحزنة الاخيرة .

فاليوم ، وازاء الوضع الراهن لقضية فلسطين ، يخضع العرب قاطبة لامتحان عسير رهيب ، قد يكون آخر امتحان عرفوه ، وقد لا يكون ، ولكنه على التحقيق أخطر امتحان وادق تجربة عرفوها ، لانه يتناول كيانهم ذاته على شكل واسع النطاق ، وبأسباب واساليب خفية مطاطة ، تستخدم الوقت والزمن البطيء الوصول الى بغيتها من القضاء المبرم : فاما تسليم بالامر الواقع الذي فرضه اليهود ومن يساندهم من دول الطغيان والرشوة ، ومن ثم تدهور مؤكد نحو الانحطاط فالعدم في اجلى معانيه ، واما قبول بالحلول النصفية التي لا تفيد غير التخدير واطالة فترة الاحتضار ، واما حزم وعزم ، وثورة للكرامة والبقاء ، وسحق الغاصب المعتدي مهما كانت الظروف والملابسات !

وعلى الاختيار بين احد هذه الاوضاع ، يتوقف تحديد معنى قيمة وجودنا ، وتتجلى حقيقة وعينا ، ومدى قدرة قوميتنا التي ندعيها على الحياة وجدارتها بالبقاء كما نريد او نحب بين القوميات المحترمة .

نعم ، هذا امتحان عصيب يتناول معنى القومية العربية في اوسع نطاقها ، لانه يمتحن الوعي العربي ذاته ، وعلى نتيجته تتوقف معرفة نصيب هذه القومية من الصحة والواقع ، وما اذا كانت حقيقية بالفعل ام خيالية ! فليس من المعقول ولا المقبول بحال من الاحوال ، ان تمر بنا ازمة بل عاصفة شديدة كالتي نعانيها اليوم بفلسطين وتهدد كياننا برمته ، وان يكون لدينا في الوقت ذاته وعي قومي حقيقي ، من غير ان يتفتح هذا الوعي بجلاء وشمول ، ومن غير ان يهز ما يكمن فيه من طاقة نضالية عاملة ، فيثور ثورة لا بد منها ولا محيد عنها ، لتأكيد الذات واثبات الوجود .

ولسنا نعني بهذا الوعي مجرد المدلول العاطفي القائم على الاحساس والشعور ، لان وعياً كهذا يعد ناقصاً في تكوينه ، ومن ثم غير جدير بالبقاء ، وانما نعني وعياً كاملاً تدخل في تأليفه جميع المقومات النفسية من عاطفية وفكرية وارادية ، وبكلمة اوجز يجب ان يعترف شعورنا القومي بالكفاءة ، وبالقدرة على العمل المركز ، وحتى على النجاح في كفاحه ولو الى مدى محدود ، والا فانه ، اذ يعجز عن ذلك ، يقدم الدليل على نقصانه في التكوين ، اي على ان وجوده او وجود القومية العربية ، لا يعدو ان يكون مجرد وجود وهمي كاذب ، لا يستطيع ولا يستحق الحياة والبقاء .

لم يُخفق الوعي القومي العربي بعد في مناضلة المؤامرة الصهيونية ، ولم يفشل بعد في ابراز طاقة جبارة من شأنها ان تثبت كيانه ، وان تؤهله للحياة الكريمة ، ولكنه مع ذلك ، لم ينجح حتى الآن في كسب المعركة والفوز بالنصر الحاسم ، لانه لم يطلق بعد سائر طاقاته المخزونة ، حتى يضمن سلامة عدته في النضال .

فمعنى القومية العربية ، وحقيقة وجودها ، بل معنى قيمة وجودنا نحن ، ومدى جدارتنا بالبقاء . كل هذا لن يتحدد ، ولن يتقرر الا بالنتيجة الفاصلة لمعركة الحياة والفناء هذه التي نخوضها من اجل فلسطين .

محمد وهبي

بائعة الحب

بقلم عبد الرزاق الشيخ علي

☆



مهداة الى وليد صفوة سعيد

طاب مساؤك يا عزيزتي!

والقيت باندريه جيد في « سيمفونيته الرعوية » جانباً واقبلت عليها مرحباً مبتسماً .

قالت وقد زمت شفتيها : — انني ضجرة من هذه الحياة !

فهرشت رأسي وقلت : — وكيف عرف السأم طريقه الى قلبك يا آنسة ؟! ان عهدي بك باسمة الثغر ، منطلقة الوجه دائماً .

— انت ، وهو .. وكلكم . — لا ! لا ! اعوذ بالله . انا لست منهم .

— وكيف !؟ الم تخالف في وعدك باصطحابي الى السينما قبل ثلاثة ايام .

فاحمر وجهي من الخجل وقلت مدافعاً : — لقد كنت مفلساً !

— وهو .. يخيل الي انه قد افلس في آخر لحظة .. و

وضربت المنضدة بقبضة يدها بعنف واسترسلت غاضبة .

— لقد «تلفن» لي في الساعة السادسة من هذا المساء ، ورجاني ان اتهيأ للخروج لاننا سنتناول طعام العشاء في احد مطاعم الشانزليزة . فرقص قلبي من الفرح لذكر العشاء الدسم ، ووقفت امام المرآة طويلاً (وهنا رمتني بنظرة تشع فتنة ودلالاً) . وانتظرت ، وانتظرت طويـلاً حتى رقصت امعائي من الجوع .. وبعد ذلك .

يا له من كلب حقير ! لقد اعتذر بدون حياء : فلقد جاءت امه من الريف .. ! ! يا ربي ! ما هذي الخنازير — ! !

فمددت يدي بعلبة السكاير مطرق الرأس من الخجل والخوف امام اعصابها الثائرة فتناولت العلبة مني بكل هدوء ، وقذفتني بها بكل عنف وهي تزمجر ، — اريد حلوى ! ! ماذا عندك من الفطائر .. ؟ فقلت لها فاغر الفم : — أمجنونة انت ! !

— ماذا عندك من المشروبات؟؟ شمبانيا؟ كونياك؟ نبيذ بوردو؟

فتأملتها طويلاً وهززت رأسي مشفقاً : — لقد بدأت اشك في سلامة قواك العقلية . . واذا استمررت في هذه الطلبات الخيالية ، فسأقذف بنفسي من النافذة ولا شك .

فمدت شفتيها قائلة : — الى جهنم .. !

— كفاني ! فلقد قضيت نهـار امس في جهـنم بسبب الاضراب العام .. فلا ماء ، ولا كهرباء ، ولا مترو ولا « البيت الاممي » الذي اتناول فيه غدائي . لقد كان اضراب الامس كارثة حلت بي .

فانطلقت ضاحكة : — واين تناولت طعامك اذن ايهـا الخنزير الصغير . — خنزير صغير ! ! شكراً . انك تختارين الالفاظ الرشيقة في تدليلي .. — أوه .. لو لم احبك ، لما دللتك .

واخذت يدي بين يديها تضغطها برفق ومودة .

قلت لها وانا اتأمل شعرها الاثيل ، وخدها الاسيل ، وعيونها الدعج ، واهدابها الوطف ، وفمها الرقيق وانفها الدقيق ، ونحرها الفضي :

— اما الغداء فلقد كان سندويشاً في احد المقاهي ، واما العشاء فكان رغيفاً من الخبز ، وقطعة من الجبن ، وفنجان شاي . فافترت شفتاها عن ابتسامة رقيقة : — لقد كان عشائي فخماً مساء الامس !

فنظرت اليها مستفهماً ، فمدت يدها تدغدغ وجهي باناملهـا الحساسة قائلة : — مع احدهم ! في احد مطاعم الشانزليزة . تصور . لقد تناولت طبقاً من الحساء ، وآخر من الدجاج والخضار ، وفطائر . وفاكهة . . ونبيذ بوردو وقدحاً من «الكلاس» . لقد كان عشاء فخماً كما ترى ، ولكن اضراب عمال المترو ..

فقاطعتها قائلاً : — وما علاقة الاضراب بالعشاء ؟

— لماذا تتعجل يا صاحبي . فلقد اخذت المترو من الشانزليزة الى ساحة الجمهورية ، وهناك وجدت بقية الخطوط مقفلة ، فاضطررت على السير ماشية من هناك حتى (بورت اورليان) . ولما وصلت غرفتي ، كانت عصافير بطني تزقزق من الجوع . فبحثت طويلاً في زوايا الغرفة انشد قطعة من الخبز .. وهكذا قضيت ليلتي جائعة وكأنني لم اتناول عشاء في الشانزليزة .

وخيم علينا صمت طويل . فكل واحد منا راح يفكر فيما سمع ، وفيما سيسمع من جديد . كل منا راح يفكر فيما حوله .

رحت افكر فيها وفي عالمها الذي تعيش فيه . عالم الحب الرخيص ، والبضاعة المزجاة ، والسوق الرقيق . انها قصة تتكرر في كل يوم وفي كل مكان . لقد بحثت عن العمل الذي يقيها غائلة الجوع ومغبة الانزلاق ، فلم توفق فيما طلبت

وبحثت عنه . ولما اعياهـا البحث – ولست ادري اكان البحث طويلاً ام قصيراً – انضمت الى بائعات الحب في الشانزليزة .

وهي لا تبيع الهوى وجمع المال ، بله لتشبع بطنها فقط ! ! فاذا ما ذهبت – ونادراً ما تذهب – واسعفها الحظ بالحصول على بضعة آلاف من الفرنكات ، تعود الى البانسيون ولا تخرج منه الا بعد نفاد آخر فرنك عندها . واحياناً لا تخرج الى « العمل » على الرغم من خلو يدها من المال . وانا احترمها واجلها ، لانها تستحق التقدير والاجلال بما اتصفت به من طيبة في الخلق وسمو في النفس .

في الطابق الذي يفصل بيني وبينها يقيم احد الامير كان . من اولئك الذين يبعثرون الذهب اينما ذهبوا وحيثما حلوا في سبيل ارضاء شهواتهم .

وفي ليلة ما دعاها لتناول العشاء في غرفته بواسطة الخـادم ، فلبت دعوته في الحال . وهناك اكلت وشربت كثيراً . ولكنها لاحظت خلال الاكل والشرب ، سوءاً في الادب ، وفظاظة في الخلق ، وشراسة في المعاملة . فاذا رغب في تقبيلها ، اهوى على شفتيها وكانه ينهش فخذ دجاجة مقلية . . واذا راق له ان يداعب شعرها ، او يلامس خدها ، خيل اليه ان هذا الشعر وذاك الخد هما اوراق مالية . اما اسلوب حديثه معها فكان سمجاً ، فلقد كان يخيل اليه انه يخاطب احد العبيد ! !

وانها لتأتي على كأسها ، وتطفيء سيكارتها ، وتعزم على امر وقفت تصعده بنظراتها من تحت الى فوق : – ما مقدار المبلغ ؟

فاجابها باحتقار : – عشرة آلاف فرنك . ! !

فقالت بازدراء وهي تضع يدها على مقبض الباب : – ضع دراهمك في جيبك يا سيدي . والى اللقاء ! وانفلتت كالظبي النافر امام وحش كاسر ، تنتفض من الغيظ وتبكي من الحنق .

***

وانتبهت على قبلة حارة تطبعها على جبيني الملتهب .

– لماذا لم تحلق ذقنك في هذا اليوم . ؟

فاجبتها مبتسماً : – لقد نفدت شفرات الحلاقة يا عزيزتي .

فقالت ضاحكة : – وقضيت نهار الاحد في غرفتك . اليس كذلك ؟

– لا يا صديقتي . لقد خرجت بذقني الطويل وشعري المنفوش .

– واكلت ايضاً . ! ؟ ومن قال لك انني اضرب عن الطعام في باريس . لقد تناولت غدائي في احد مطاعم (فوجيرار) لقاء ٢١٠ فرنكات . ومن هناك ذهبت الى ساحة (الكونكورد) حيث دفعت ثمانية فرنكات ودخلت متحف « المدرسة الانطباعية » حيث لوحات Degas و Renoir الخـالدات . كم احب Degas في الكاويات ، الا تحبينه يا لوسيان . ؟

فلاحت على شفتيهـا ابتسامة غامضة : لقد بدأت تهذي يا صاحبي . لقد ذكرتني بماري انطوانيت حيث طلبت من قائد الحرس اطعام نساء باريس الجائعات « البسكويت » . اين انا و Degas . اين انا من دنيا الفن والعبقرية والحسـاود . ما قيمة هذه الالوان وتلك الخطوط بالنسبة لفتاة تبحث عن الخبز وتفكر في العيش . دع « الهارموني » في الالوان يا صاحبي ، وحدثني هل تمشيت في هذا المساء ايضاً .

واسندت رأسها الى الجدار بسأم ، واسترسلت قائلة بألم :

– انني ضجرة . اريد ان اخرج ، لنخرج معاً بعد ان تحلق ذقنك .

– الآن ، وقد اوشك الليل ان ينتصف ! وكيف نخرج والى اين نذهب وانا خالي الوفاض كما تعلمين .

فضربت الارض بقدمها الصغيرة : – لست ادري متى تمتلىء محفظتك بالدراهم ؟ يخيل الي ان اهلك قد نسوك كما نسيني اهلي من قبل .

فقلت مدافعاً : لقد استلمت منهم رسالة قبل يومين ، يعلمونني فيها انهم سيبعثون لي المال اللازم بعد يومين .

فانفجرت ضاحكة . وانتبهت على الخطأ الذي وقعت فيه فاحمر وجهي من الخجل ولزمت جـانب الصمت . . فلقد سمعت مني « قصة » الرسالة اكثر من مرة . وطلبت مني بعد حين ان اطعمها مما عندي فحدثتها عن قطعة من الخبز ، واخرى من الجبن بقيا عندي منذ مساء امس . فاشاحت بوجهها قائلة :

– انا لا احب الجبن يا صاحبي . سأذهب الى ايفون الخادمة لعلني اجد عندها شيئاً اسد به رمقي . – وستعودين يا لوسيان ؟؟

فـابتسمت بدلال : – اجل يا علي . لابعث الحرارة في اطرافك المتعبة . وذهبت كالنسيم .

فلما خلوت الى نفسي شعرت بجوع شنيع ينهش امعائي . . فلقد قضينا وقتاً طويلاً في التحدث عن الفطائر والحلوى فانقضضت على الخبز والجبن كالمجنون ، ورحت التهمهما بشراهة ونهم . وعندما مددت يدي بآخر قطعة من الخبز الى فمي ، سمعت طرقاً خفيفاً على الباب ، واطل رأسها الجميل منه . ولما رأتني اجمع فتات الخبز من على المائدة شحب لونها وتسمرت في مكانها .

قلت لها وقد راعني اصفرار لونها : – ماذا حل بك يا عزيزتي ؟!

فاندفعت تحوي ناحية وهي تقول : – لقد اكلتها . . ؟! اكلتها يا علي . ودفنت رأسها الصغير في صدري وهي تجهش بالبكاء : – لقد سألت ايفون ان تطعمني فأبت . . انني جائعة يا صاحبي . ! !

القاهرة عبد الرزاق الشيخ علي

سكرات في رماد

« ان للموت لسكرات » (حديث)

كيف هذا الناس لا يحكون عني　　كيف لا يحكون اني من هواء
بعد ما يسحق هذا الداء مني　　هكذا كلي وجزئي . والرخاء

حرقتني النـــار حقاً لامراء
جعلت جسمي رماداً وهباء
بل انا اليومَ هواء في الهواء

اذ رأوا كأسي امامي والمدام　　ورأوني غبت في واد سحيق
همسوا جن ، وغشـاه الظلام　　تبع الاوهام ، هيهات ، يفيق

كفروا بالكأس كفر الاولين
ارجعوا لله رجمي النادمين
كأسه . . لا كأس شيطان لعين

قلت ان ينطق بالآه لســاني　　كيف لا اكتمها بين الضلوع
وانا المارد ما هدّ كياني　　سورة الحزن ولا الداء الوجيع

فــاذا بالداء يطغى بقواه
يقتل الانفاس مني والحياه
قلتها بالرغم من عزمي . آه !

مثل هذا الليل يغري بي سقامي　　آه من ليلي ، ومن هذا السكون
إيه ماذا بين طيات الظلام　　يضمر الليل فيغري بي الظنون

انا يا ليل غريب في دجاك
ولقد مرّ على نفسي سواك . .
آه يا ليل وآه من رؤاك

ذقت يا ليل رماد الندم　　وانا اليوم رمـــاد نادم
لو سعت تبغيه كف العدم　　بين اسدافك ضل الراجم

انمــا ساورني حس غريب
شدما ارهب ما تخفي الغيوب
والدجى الصماء والصمت المريب

بينما روحي في الآفاق تسري　　تنشد الايمان في جوف الدياجر
ذبت في نور شفيف . لست ادري　　ذبت ام ذا كان اوهاماً هوادر

غير اني موقن اني رأيتـــه
وتألمت لديه وهــو يته
وعصرت الغي دمعاً وسقيته

لا تصدوني عن كأسي فما لي　　سلوة عنها وقلبي في صمم
واتركوني لعذابي ونكالي　　انمـــا ذقت لذاذات الالم

بينما جسمي في النار يعاني
تستشف الحجب عيني فأراني
تحت ظل الله ما بين الجنان
وعـلى جرحي منه بلسمُ
وامامي جدول او برعم
ونعيم قــد عداه الالم

كفر المباسرة – مطر　　محمد احمد عبد

النصب الخالد

الى روح امي النائمة على ضفاف « النهر العظيم » تحت جناحي
حرمون المهجر – مونت فرنكلين – الباسو تكسس

أهيمُ بذكراها وامضي مردداً　　فقد يطمئن الروح اذ يسمع الصدى
كأن فراق الروح لقيا احبة　　ووصل الحنايا فصلها المتجسدا
لها حلل العليا ولي حفنة الثرى　　ومجد حبا الامجاد نوراً مخلدا
لئن يخفق القلب الشجي فنعمة　　لقلب على الاحداث بات مغردا
فيا طيف من اهوى ارتقب لي دمعة　　تروي فناء القبر مسكاً وعسجدا
هنيئاً لورقاء تقيم بقربهــا　　فيا اختهـا غني القرار المؤبدا
خيال بديجور الليالي يزورني　　فيمسح عن وجهي ضباباً تجمدا
ويهمس في اذني آياً تقدست　　تعودتها طفلاً وكهلاً وامردا
ويوقظني من عقلتي وسكينتي　　فتلمس روحي ذلك العنق واليدا
كاني وهي روحان في جسم واحد　　كلانا لحادي البين صاح انا فدا
فيا لك من حلم لذيذ مروع　　ويا لك من قاص ودان توحدا
مررت عــلى حي بتيماء ممرع　　سقى الله تيماء الشآبيب سرمدا
نداء ولكن لا مجيب لطارق　　هي الدار قفراء لا ترد لي الندا
افي الحي يقظان اذا مر عابر　　رماه الندى في الصدر سهماً مسددا
«فيا دارها بالخيف ان مزارها»　　مناي على رغم المفاوز والمدى
غداً الثم « النهر العظيم » وشطه　　واركع في افياء هيكله غدا
ولي نصب يحميه طود مجنح　　ويسقيه ان جفت رياحنه الندى
تسامى ! له فرع على غرة العلى　　واصل على رحب الفضاء توسدا
يباكر آس الروض طيب عراره　　وفي الليل يبدو للعوالم فرقدا

الولايات المتحدة　　الدكتور سليمان داود

يقظة ضمير

على قميصي اثر صــارخ　　ذكرني ليلـتي الحمرا

يا اثراً ما انت الا دمي ... قد طبعته شفة سكرى
في ليلة قد اسعرت في دمي ... دنيا الجمال الشهوة الكبرى
عبثت بالحسن كأن لم اكن ... ألفت فيه القدس والطهرا !
ثملت بالحسن وقد ينتشي ... مثلي ولو لم يذق الخمرا !
غرز بي الحسن فطاوعته ... كم غرد الحسن وكم غرا ؟
حتى ترامت على مضجعي ... حسناؤه كالنور اذا افترا
يفوح منها عبق مبهم ... اشذاؤه أنستني العطرا
ضممتها في طرب فتنة ... وبي عرام الشهوة استضرى
فهب موتاعاً ضميري الذي ... حسبت ما استمرأته استمرا
واستوفز الهاجس مستنكراً ... ما كان من امري وما جرا
فانتفضت نفسي على صوته ... مذعورة تستفظع الامرا
ومادت الارض كأن زلزلت ... وابتلعت لحظتي الدهرا
ضاق بي المخدع فاستوحشت ... نفسي كأن لم تقترف وزرا !!
فصاحت الحسناء ماذا دهى؟ ... ما بال لحظيك قد ازورا ؟
جانبتها غير مصيخ الى ... ماسألت . . . فامتقعت حيرى
تركتها ثمة عريانة ... ما ارخص الحسن اذا يعرى
من زلتي عدت الى عفتي ... لا كانت الاولى ولا الاخرى

ابرهيم عوبديا

بغداد

انت !!

مهداة الى «انت» للاستاذ البير أديب المنشورة في عدد كانون الاول ١٩٤٧

انت في عيني اطياف وفي قلبي نور
أتملى فيك دنيا من نعيم وحبور
ورؤى حالية تندى كأحلام الزهور
حينما يبسم فجر ... ناشراً حولي سناه
ويغني فيه طير ... تاركاً فيَّ صداه
انت افق لشعوري ولأحلامي مثال !
اتملى فيك دنيا من فتون وجمال
ورؤى حالمة سكرى يناغيها الخيال
عندما يشرق بدر ... يتهادى في سماه
ويغني سامر الليل ... بآهات هواه
انت قيثارة شعري اتغنى بهواك
اتملى فيك شيطاناً واحياناً ملاك
انت معبودي افهل في الكون معبود سواك؟
حينما افتح جفني ... على سحر الحياه

واميط الستر عني ... وأرى سر الاله

محمد سعيد المسلم

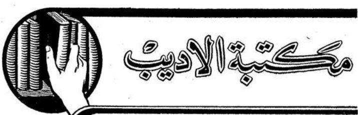
البحرين

الامل الباسم

أبسم لقلبي الواهن الفاتر ... وخذ بحظي المتعب العاثر
واجل لي الايام امسية ... زهراء ، تاهت بالسنا الزاهر
وانثر بها الافراح ما اومأت ... لي المنى من كونها الساحر
وما هفت للحن قيثارة ... وما شدت حنجرة الطائر
ابسم !! وهات العيش اغرودة ... رنانها من نايي الزامر
وهات ما تحويه من فرحة ... ارشف من سلسالها الزاخر
وهات ما تمليه من خطرة ... مشبوبة، تنساب من خاطري
وطف بروحي في مروج المنى ... واخطر بها في روضها الناضر
واعبر بها الايام في لحظة ... فوق الدنا ، والزمن العابر
ابسم لمحروم قضى ردحة ... من عمره في بؤسه الساعر
يستقبل الايام مسودة ... كأنها من ليله الحاسر
ضمت على آلامه وانطوت ... في دجنها بلواه . . . كالغادر
صبت عليه من تباريحها ... سوط عذاب مرهق قاهر
ان قال : آه ! لم يجب صوته ... سوى رنين للمدى الماكر
اوذاب دمعاً لم تكفكف يد ... رحيمة من دمعه الغامر
لم يؤت في ايامه مهجة ... تحنو على ريعانه الحائر
تضمد الجرح الذي شفه ... بنفحة من حبها الطاهر
وتبعث الافراح في كونه ... فينتشي من نفحها العاطر
تجلو له العيش وآلامه ... زنبقة في عمرها الباكر
او لمحة مخطوفة فارقت ... اضواءها في فجرها السافر
أبسم . اونضر عمر هذا الفتى ... وشد من بنيانه الداثر
قد مل في الدنيا تباريحه ... ومل شكوى الموجع الساهر
يا قلب ! لا تحزن فقد أزهرت ... حديقتي عند الضحى الطافر
وأورق الدوح الذي جردت ... اوراقه ريح الشتا الغابر
فالزهر [في] افنانه مائس ... على هبوب السجسج السائر
ضافي الرواء في غصنه راقص ... على هتاف البلبل الهادر
والنخل يوني ثمرة أينعت ... ويبسط الافياء للزائر
يا قلب ! لا تحزن ولا تبتئس ... واهتف معي للمغنم الوافر
أهتف معي . ! فالعيش مخضوضر ... رواه طل الامل الماطر
يا قلب ! قدنا من هموم السرى ... وهل بنا للشاطئ السامر
ولنترك الاهوال صخابة ... في بحرها المنتفض الثائر

احمد اللغماني

تونس



قلب لبنان

لامين الريحاني – ٦٢٥ صفحة – مطابع صادر وريحاني – بيروت

مع روح الريحاني في قلب لبنان

ولعنواني هذا غايتان، او ان شئت فقل ان له معنى ذو وجهين، كما انه كان لي، اثناء مطالعتي الكتاب، غرضان.

فان الأمين اصبح اليوم في عالم غير الذي نحن فيه، واصبح الحديث عنه كأنه لا يتسنى الا عن سبيل مناجاة روح نستحضرها بالذكر، فنستعيض بذلك عن وجود الشخص المادي الذي كانت تحييه. هذا من ناحية، واما الناحية الثانية فهي بحاجة الى بعض الاطالة والاسترسال.

لست، بالرغم من انني من قرية مجاورة للفريكة، ممن عاشوا مع الريحاني وخالطوه، بل انني لم اشاهده الا مرة واحدة، عن بعد، ولما ابلغ، على ما اتذكر، الرابعة عشرة من سني. فما لبثت الصورة المادية التي انطبعت فيّ عنه اذ ذاك ان استحالت الى ذكر انطوى مع ما أنطوى في وجداني من ذكريات سواه، يطفو ويشرق بين الحين والحين على صفحة ضميري، فيربط هكذا ماضي بحاضري، ولا يشيعه الا بعض المقطوعات من آثار مفكرنا الادبية، طالعتها في كتب المنتخبات، ودرستها مع اترابي خلال دروسي الثانوية. حتى انني لست من الذين اقبلوا على شتى مؤلفاته بالبحث الطويل المدقق، محاولة منهم ان يكونوا لهم صورة وافية وافرة قوية عن شخصيته ليذيعوها بعدئذ على جمهور القراء. لست من هؤلاء جميعاً بشيء، وانا اعترف للقارىء بنقصي هذا، اذ ان له الحق علي بذلك. واعترف له الى كل هذا الذي سبق بانني نظرت الى الريحاني بعين كراتشكوفسكي الروسي وباراس الافرنسي وجيب الانجليزي وبروكلمان الالماني قبل ان اقبل مباشرة على مؤلفاته والدراسات العربية فيها.

فما كنت اذاً، اثناء تولجي في قلب لبنان في معية شخص قد اخلص الحب للبنانه، لأحاول مجرد الاستطلاع على هذا الوطن الصغير شعباً وارضاً جبالاً واودية، وهي امور كان عندي بها إلمام وافر والحمدلله، وما كنت ايضاً، اثناء مرافقتي للريحاني في جولاته لارجع الى تذكارات ساعات من حياتي قضيتها واياه، استحضر بها روحه، واموي على هذه الحال التي اشرت اليها بالاضافة الى اديبنا. بل كنت اجتهد في ان اتبين هذه الروح واوضح لي ميزاتها فازداد معرفة بالرجل الذي كان يحيي بها شيئاً فشيئاً، بمقدار ما كانت تمتد بنا الطريق وما كان يطول بنا السير عليها جنباً الى جنب.

وكل هذا دفعني ان اسلف ما اسلفت من عنوان ومن كلام في اول مقدمتي ومن انه كان يحدوني في مطالعتي الكتاب غرضان: غرض اول وهو هذا الدخول الى قلب لبنان وهذا النظر اليه بعين غير عيني. وغرض ثان وهو هذه المحاولة في ان اتعرف باستنتاجي ميزات روحه ونفسه الى الشخص الذي اتخذته الدليل والرفيق في عملي والذي كنت اجهله حال مباشرتي بهذا العمل اذ شاءت الاقدار الا اجتمع به حياً واتحدث اليه وجهاً الى وجه.

فاما شاراته المادية من انبعاث قامة وائتلاف عضلات، واما خطوط وجهه وتكويناته العامة من لون ونور في العيون وبريق في الابتسام، واسرة وسمات بشرة في الوجه الى ما سواها من الامارات الجسدية، فجهلي لها نقص لا يزال فيّ ولن يتلافى عندي. اما روح الكاتب، هذه الروح التي نحسبها جميعاً منبع الشخصية وقوامها، فما كنت اشعر بنفسي قاصراً عن الحديث عنها، فور انتهائي من مطالعتي الاولى للكتاب. كيف لا وهذا الكتاب الذي حال الموت بينه وبين ان يبرزه مؤلفه مكتملاً تاماً، لم يكن من القيمة الفنية والادبية بمكان في كثير من نواحيه وفصوله خلع عليها اديبنا طابعه الخاص وصبغه بصبغته الشخصية الفريدة، بل كان ايضاً خلاصة ما انطبع في نفسه من سياحاته الصغيرة في جبالنا المحبوبة – . « وهل مثل الطريق في كشف مخبآت الرفيق » – ولا سيا اذا كان السفر مشياً لا ركوباً في سيارة تمر بك « كالسهم » في المدينة الجبلية، وتدخل بك في القرية وتخرجك منها كالقنبلة وقد اطلقت من مدفع جبار ». وكان الريحاني قد اصبح « ابن بجدة » السير على الاقدام بعد الممارسة والترويض، فاخذ يصعد في مقربات الجبال لا رغبة بالنزهة فقط بل حباً بالاستكشاف عن جمال الطبيعة في مشاهدها ومكنوناتها ». وكل الرحلات التي

يذكرها في كتابه : الى الارز ، الى صنين وزحلة عن طريق وادي الجماجم وبسكنتا ، الى بلاد جبيل حيث كان الشريك ، الى ارز جاج ، الى اللاذلوء ، الى افقا ، كل هذه الرحلات لم يكن للسيارة فيها الا الحظ اليسير ، كأن توصله الى مركز يتخذه كمحط الرحل له ، منه يخرج واليه يرجع لتجولاته في القرى المجاورة والاماكن الوحشة « المجهولة الا ممن يقيمون بجوارها . . وقد لا يكون بينهم من زارها غير الصياد والمعاز والفلاح الذي لا يزال لصيق الارض وعشيقها » .

كان الريحاني حقاً اذاً ، اثناء رحلاته هذه ، في حـالة نفسية السائح المتجول ، بكل مـا تقتضيه من رغبة عن المألوف عند الحواجات وضمن البيئات العريقة في تاريخها ، المحتفظة بتقاليدها ، المتقيدة بعاداتها في الحياة حلاً وترحالاً ، وبكل ما تقتضيه هذه الحالة من اطمئنان وارتيـاح في الاسترسال الى الحديث الودي الذي لا يقف بالصاحب عند باب النفس وسطحيتها ، بل ينفذ به وبقلبه الى قدس اقداسها المنيع ، الى ثناياها الخفية حيث يبدو المرء على ما هو في حقيقة امره كلها . وقد يذهب هذا الانبساط بالمؤلف ، حتى الى الحديث عن دخيلة اموره العاطفية ، عن شعور الحب الذي قد يمتنع المرء عن اذاعته للصديق ، خشية الابتسامة اللطيفة الحادة ، او يبثه متالكاً ، بحياء قوي ، خوفاً من ان يدنس من طهارته ، او يكدر من صفائه السماوي . . الى هذا الحد انتهى بالريحـاني صدقه في الحديث الودي .

فبدت لي روحه ، اول ما بدت لي ، ظريفة ، انيقة ، طيبة ، مرحة ، طروباً ، مداعبة ، متهكمة ، لبقة في تهكمها ومداعبتها فالريحـاني يروي بخفة ولطف صعوبات المقربات وعقباتها ومـا تكلفه من جهد وعناء ، ومـا يجري بينه وبين مكاريه او بين المكارين انفسهم من امر وحديث ، ولا يتحرج عمـا يحمل كل ذلك من خشونة ، وحتى من بذاءة بعض الاحيان . وهو يتهكم برفيقه ويسخر بعيوبه الاجتماعية ، وقد يكون لاذعاً في سخره على نعومة ولباقة دائماً ، شأنه مع « الحي حنا » . ولطالما التمس النكتة واوردها ولو كانت على نفسه ، فيبعث بهـا الابتسامة حيناً ويثير الضحك حيناً آخر . والشواهد في ذلك كثيرة تختار منهـا سيرة اديبنا مع مكاريه محبوب في رحلته الاولى .

وما كان مثلاً من ابتلاع تحذيري دليله له من الخوف حـال علوه البغلة او استوائه على متنها ، او قصته مع «الحي حنا» المسكين في السفرة الثانية ، او روايته للمهارشة والمسابة التي جمعـا بين قرويين في صفاء الفجر قبل بزوغ الشمس على علو ٥٠٠٠ قدم من حضيض البشرية ، في اعالي الجبال ، في مهد السكينة والنور ؟ او حديث المكارين الذين سار برفقتهم الى زحلة . . وما رأيك في وصفه للحمير والبغال وسائر المركوبات ، وفي وصفه للسويعات التي قضاها مع اصحاب له من أدباء وأدبيات معروفين ومجهولين تحت ظلال ارز جاج ، وفي مناقشته اللغوية لكلمة متنزه وتفضيله منتزه عليهـا ، وفيما يقترحه من زاد ادبي وتاريخي وسياسي للمفكر النابه اثناء تجولاته في قرانا . فان لم يكن كل ذلك وفي سواه تفكه لطيف ناعم وظرف واناقة ، تنم جميعها عن نفس مرحة طروب تواقة الى الدعاب ، الم تكن مطبوعة على التهكم والسخر ، فاننا لا افقه لكل هذه الكلمات لا معنى ولا مرمى .

والاناقة في الحديث والخفة في الروح يقترنان دائماً بطبيعة الحال الى بساطة وسذاجة في النفس يجعلانها اشبه شيء بالماء الرقراق على مجرى من الرمل المنقى الصافي . ويبدو الريحاني بسيطاً وديعاً حقاً في كتابه . عاد من نيويورك الى مسقط رأسه في لبنان ينشد حقائق الوجود الكبرى ، فوجدها في البساطة او وجد البساطة الطف ناحية من نواحيها « ووجدها في الوداعة بل وجد الوداعة صورتها الساحرة » فكانت كل حركة تبين فيها الوداعة تترك في نفسه اثراً قوياً ، وانقلب يحاول الاندماج فيما هو مرآة البساطة وصورتها الصادقة ، في الطبيعة وما تتشكل به من حيوان ونبات ، وارتاح الى مناجاتها في مختلف ظواهرها متمثلاً بفرنسيس الاسيسي قديسه الاطهر . فرآه الناس « يقف مأخوذاً عند وكر ترقزق فيه صغار الطيور ، او عند زهرة تنور بين الصخور ، او عند قندولة يفوح طيبها من بين الادغال ، او على رابية خضراء فوق جبل اجرد اصم » .

وقد يكون هذا الالتصاق بحياة الطبيعة وهذه المحاولة للاندماج فيها نتيجة دافع فطري بكر عند صاحبه دافع البساطة والسذاجة الطاهرة العذراء ، وقد يكون نتيجة فرار من الحياة العملية الصاخبة اشمئزازاً من موبقاتها بعد ان ذاق المرء حلوها ومرهـا ، واختبر ظاهرها وباطنها . ولربما كان هذا هو الرأي المرجح في شأن من نحن برفقته ، اذ انه يشير الى كل ذلك ، كالى ارتداد ورجوع عنده الى شيء كان قد غفل عنه فيما سبق . ومهما يكن من امر فنحن امام واقع لا بد من تسجيله وهو ان الريحاني يظهر لنا بسيطاً ساذجاً في حديثه ووصف نفسه وحبه هذا للطبيعة ولحياتها .

والبساطة ، ان كان فيها وداعة الحمل وحياء الفتاة فهي تتسع للصراحة في القول اذا ما دعت اليه الحاجة فتشتد وتقوى وتدرك

حينئذ اقصى حدها . وكان الريحاني صريح الكلام . فجاهر بما يراه مثلاً من شان الاصطياف، ووجه الى زحلة « العروس المزينة » التي شوهت المقاهي جمال واديها الطبيعي القديم « كلمة قاسية صافية مجردة عن كل شيء غير الحب والصدق » والاخلاص وما كان اشد اخلاص الريحاني لاصحابه واحبائه اشياء واشخاصاً مجهولين كانوا ام معروفين مشهورين .

الا ان هذه الخفة واللباقة المقترنتين الى بساطة ووديعة قوية، لم تكن لتشف عن نفس قريبة القعر، ولتنم عن عقل سطحي التفكير، كما هو الشأن عند جمهور الناس ممن نعرف عندهم التفكه وبساطة القلب ، فنستحب الاجتماع اليهم لمجرد الممازحة والترويح عن النفس . بل ان رفيق الريحاني يشعر بنفسه الى جانب رجل محب للسكينة والاطمئنان والهدوء ولا يرى النعمة الا فيها . وعمل السكينة في المرء، التعمق في التفكير وبعد الغور في النفس، يقبلان بصاحبهما على الامور والاشياء، فينفذان به الى صميمها سبراً وتحليلاً، ويولدان فينا نحوه الاحترام والاجلال . ولا بد من ان نؤدي لفيلسوف الفريكة هذا الاجلال وهذا الاحترام عند شتى مواقفه امام مشاهد لبنان، وعندما يولد فيه « رد فعل » اندماجه في الشعب اللبناني واجتماعه الى لبنانيين ولبنانيات او تذكره بلبنانيين ولبنانيات ، وعندما تبعث فيه من عواطف وصور عاداتنا اللبنانية وتقاليدنا اللبنانية ، وكل هذا الذي يقوم به وعليه تراثنا المعنوي اللبناني الذي لا يرى المؤلف حفظ كيانه التام الا « بالحياة المقرونة بالعمل » ، « وبالعمل المكلل بالحرية » .

وقد لا يتقبل القارىء بعض آراءه في هذا القبيل بعين الموافقة والرضا ، غير انه لا بد له من ان يتقبلها جميعاً بشيء من الانشراح والاغتباط لما يرى فيها من الاطلاع الوافر والاختبار الواسع، ولانه يراها غنية الحواشي طيبة الاريج . وبكلمة اصح واوضح لا يبدو الريحاني في كتابه كرجل مشغوف بالكتب والكتابة فحسب ، بل ايضاً كرجل تحليه ثقافة انسانية حية غربية وشرقية[1] . ولا نعول في كلامنا هذا على الفصول التي فردها الكاتب لتاريخ لبنان القديم ولا سيما للعهد الفينيقي منه . ولقد نرى انفسنا في غنى عن مطالعة قصة الرحلة الاخيرة الخيالية التي قام بها في « غياهب الزمان »، لا بل قد نراه قاصراً احياناً في هذه الناحية العلمية[2]، ولقد يشعر هو نفسه بذلك ويعترف لنا بشيء من الجهل لها فيحيلنا الى صديقه شارل قرم او رفيقه الحويك . الا ان كتابه فوق ووراء البحث العلمي المحض غرضاً وغاية : غرض الكتاب محاولة الانسجام مع حياة لبنان طبيعة وشعباً ، ومحاولة الدخول الى قلب لبنان ، والقلب لا ينتهي اليه ويدركه الا القلب مع ما يصحبه من عاطفة وشعور ، فيجاريه في خفقانه ويشاركه خلجاته ونزواته . وان كان للماضي وللقديم شأن في كل ذلك ، ولا سيما من حيث الشعب ، فعرضاً ، ولا تتجاوز خطورة هذا الشأن ما نعتد به ونحسب له حساباً في ماضي الانسان لفهم شخصه الحي الحاضر الآن امامنا . وفي هذا العمل المقتضى عليه بطبيعة حاله ان يؤلف بين البحث العلمي المجرد والانفعالات الناشئة عن الواقع الحيوي ، في هذا العمل التأليفي لاستيعاب حياة لبنان بكل نواحيها ، كان يخشى على الريحاني التورط في جفاف الكلام والبعد عن طلاوة الجملة وحلاوتها . الا ان القارىء لا يلبث ان يطمئن الى سلاسة العبارة ورونقها وسهولة انقياد البيان ، لما استطاع الكاتب ان يحسن في اداء فكرته وصوره « مزج العلم والفن مزجاً ادبياً فنياً » . نلمس عنده في كتابه سعة اطلاع العالم وسداد تفكير الفيلسوف يجمع اليهما سمو خيال الشاعر في وصفه المشاهد الطبيعية من جبال ووديان وغابات وصخور وبساتين ، ودقة تحليل الاديب الناعم للمواقف والنفوس، وناهيك بنظرة الرسام الفني العبقري هذه التي تهديه الى الامكنة الكشافة اللائق الوقوف فيها للاستمتاع الفريد التام بجمال المناظر الى حده الابعد ومداه الاقصى وانه الى كل ذلك ، يرى مهمة المفكر والاديب هذه كدعوة له يشرف بها فيضن ويترفع بها ويخشى عليها من ان تبخس قيمتها اذا ما هبط بها الى مستوى العواطف الانسانية السطحية المبتذلة التي قد تحصرها وتضيق من رحب آفاقها .

هذه هي الثقافة التامة في جوهرها الحقيقي، الثقافة التي لا ترمي الى مجرد ما في العقل من غذاء فكري علمي محض وفي الخيال من مادة وصور تقوم وتعد حسابياً ، بل ترمي الى تثقيف العقل والخيال

---

(١) عن بروكلمان : Das grösste Verdienst um die Erschliessung des Orients für der Geist der westlichen Kultur erwarb sich «Amin ar-Raihani» كان الريحاني اهلاً لاطيب الثناء بفتحه الشرق لروح ثقافة الغرب . (بروكلمان - تاريخ الادب العربي . الملحق الثالث . ص٣٩٩ . ليدن . بريل ، ١٩٤٢) .

(٢) كما هو الامر فيما ذكر من نشيد عيد ادونيس عن صاحبه الشاعر الاميركي ماريون ملار (ص ٢٩٥ وتابع) . اما النص الانجليزي فلم نعثر عليه ، وهو ، دون شك ، مخزون الآن في مكتبة الريحاني . اما النص اليوناني فلقد اثبته التمحيص العلمي على غير الشكل الذي اورده فيه الامين مجارياً رأي صديقه الاميركي . راجع في هذا الصدد : « Bucoliques Grecs » — Vol I — Théorite. Coll. Guillamne Budé ص ١٢٥ – ١٢٧ .

اي تقويمها وتصليح ما فيها من اعوجاج في حال اغتنائها ، والى تسديد العواطف والشعور وتهذيبها وتوجيهها الممتاز بمقتضى اختبارات الحياة يغذيها الاطلاع العلمي .

فاعزز بها اذ ذاك واكرم بها من روح اجتمعت فيها كل هذه الحسنات الانسانية واسعد بلبنان من وطن احبه صاحب هذه الروح ومحض له الحب واعده جبله المقدس . ولا سبيل لنا ان ننكر هذه العاطفة عند الامين ولا نتردد قط في ان نحول عليه ما قاله عن داود بركات « حمل لبنانيته في قلبه وعلى كتفيه فما مادى يوماً بها ولا آثر خيراً على خيرها » . وكتابه ، حتى في عنوانه « قلب لبنان » دليل قاطع على هذا الذي قدمنا ، فيه يحقق اديبنا رغبة كل حبيب بمحبوبه وهو لا يكتفي بما يسمعه عن الغير في شأن هذا المحبوب ، بل يقبل عليه هو بنفسه يدرس ميزاته ويحلل محاسنه وعيوبه ويزداد بعد ذلك شغفاً به وحباً له . فالطرق الجبلية والطواحين القروية والاشجار السندسية الاخضرار والقرى المنتشرة على جفن الوادي وشفا الهاوية ، والينابيع وصوت جري مائها بين الصخور وشذا النباتات والازاهير ووصف البساتين النضرة في السهول والبقاع ، كل هذه الاشياء التافهة الشأن عند جمهور الناس ، حظت في كتاب الريحاني بسطور لا بل بصفحات ناعمة لطيفة تليق بها . واما الظواهر الطبيعية الخطيرة الشأن ، فحدث عن وصفها ولا حرج . اعالي الجبال حيث يلطف الهواء ويصفو الجو وتخف حرارة الشمس فيلذ المشي عليها بعد ما صرف السائح من مجهود قوي للوصول اليها ، البوادي الصخرية القاحلة وما تحتوي عليه من متاحف في تكوينات صخورها ، الارز ، ارز الرب وارز جاج ، وادي الجماجم ، نهر ابراهيم وعمل النسيم في مائه وواديه ، القمم والوادي في اهمج ، اللألؤ وارضه وجوه وآفاقه ، ضهر البيدر وقممه الجرداء وكرومه الخضراء ، العاقورة وزحفاتها وخسفاتها وهمة العاقوري في مقاومة هذه العوامل الطبيعية الباطشة ، الهرم المدرج « والغابة المغضوب عليها » المجاورة له وطريق الفتوحات بين هذا وتلك ، مغاور افقا وتاريخ تكوينها الطبيعي واهميتها القديمة ، الرويس ومنتزهه ، يحشوش وافقها الضيق مادة ومعنى ، المناظر الطبيعية التي يشرف عليها من سطح مار شربل ، وفوق كل ذلك هذا التحليل السامي الشعري لتاريخ جبال لبنان وما مرت فيه من اطوار جيولوجية . كل هذه الظواهر يعرض لها المفكر في صفحات ممتعة رائعة قوية يجب على الناشىء اللبناني مطالعتها وحفظها غيباً من الناحيتين الادبية والوطنية ، ويجمل حتى بالسائح قراءتها حين وجوده في الاماكن التي تبحث عنها . ومما يزيد تلك الصفحات قيمة وروعة ومتعة هو ان الريحاني لم ينفرد فيها بوصف الطبيعة دون الكلام عن الشعب الذي يحيى ضمنها فالشعب اللبناني اضيق صخوره وصروده وهو مثلها في « اخشيشانها ونسيمها وينابيعها » . فكيف يفصل الانسان بين ما كان الله قد جمع . وها هي طبقات الشعب اللبناني تستعرض امامنا من احقرها الى اسماها خَلقاً وخُلقاً مع كل عيوبها وكل حسناتها : المعاز وبساطته الجبلية وجلده ومتانة عضلاته ، المكاري وحديثه وفلسفته في الحياة وما هو جدير به من وقار واحترام ، الشريك الرواغ الذي يستلبك ارضك ويمل خيراتك كانه يعل ماء في اناء ، اللبناني الوسط الخفيف الظل المفلفل الحديث ، الطبيب القديم المخلص في فنه البسيط المعاملات والادوات الطبية ، المرأة والفتاة اللبنانية ، سواء كانت تدأب على العمل في منزلها وتقوم بمقتضيات الضيافة اللبنانية ، او كانت تظهر مع الرجل في الملاهي اللائقة الوديعة تشاركه فيها وتحليها بثقافتها ولباقتها ، الخوري والراهب اخيراً وجميعنا يعلم رأي فيلسوف الفريكة فيهما ، الا انه يخص بذكر طيب عطر خوري الارز واخواتنا القانتات في دير كفيفان . وما اشد ما كانت عاطفة الامين على زملائه ممن رفعوا عالياً اسم لبنان في عالم الفكر والادب والشعر وخلدوا اسماءهم على صفحات الادب المعاصر شأن ميخائيل نعيمة ، وداود بركات وآل معلوف ، وسلمى صائغ وشارل قرم وغيرهم ممن يصعب علي ذكرهم جميعاً هنا .

وللشعب اللبناني عاداته وتقاليده ، منها ما فقد والريحاني يأسف عليه كالحرف والصناعات في الضيعة ، زالت بعد ان عدل الناس عنها للمهاجرة الى « افريقيا السوداء » او اميركا ، ومنها ما احتفظ به ولو طرأ عليه بعض التطور كالحياة العائلية في القرية ، والاجتماع تحت السنديانة ، والضيافة خاصة تلك الضيافة التي طبعتها الفطرة الطيبة اللبنانية بطابع خاص ممتاز فبدت كبيرة دائماً في روحها ، واذا ما كانت وديعة حيناً فهي اذ ذاك جميلة في وداعتها . والامين يحب في التقاليد اللبنانية حتى الظواهر التي تتنافى بطبيعة حالها وبعده عن الايمان المسيحي الذي فطر الشعب اللبناني عليه فطراً وفرده بنزعاته واميااله ، يحب اجراس القرى والاديرة اللبنانية ويطرب لاصواتها في الاصيل لما ترميه فيه من عالم شعري ساحر ويحب سنديانة الكنيسة اللبنانية ويرعى لها حرمة قوية فيستنزل لعنة الله على من يمسها بسوء قط ، كما انه يستسيغ رحمته تعالى

على كل من يحسن المعاملة نحوها والاعتناء بها، ويريد ان تتفيأ عظامه ابد الدهر في ظلها .

نعم قد لا يروق بعض اللبنانيين لون لبنانيته وطابع حبه للبنان فهو شأن جبران وشأن كثيرين من المهاجرين اللبنانيين، يرى نفسه شرقياً ويرى انه عربي الاميال كما انه لبناني العواطف . وكانت روحه منذ عودته الاولى من اميركا، لا بل اثناء وجوده في العالم الجديد، تتجاوز في خلجاتها ووثباتها حدود لبنان وتتراكض في كل تلك البلاد الممتدة من قلب الهند الى جزائر الغرب، المنبسطة من الخليج الفارسي الى جبال القوقاز . فلبنان كان في رأي الريحاني جزءاً، مصراً من كل تلك الامصار التي تتكلم بلغة الضاد . وكان قلبه يتسع لكل تلك الاقطار وكان يعمل في توحيد كلمة سكانها جميعاً . وان لم تكن هذه الروح، روحه، لتردد، شأن بعض زملائه من المجاهدين الاول في سبيل تحقيق الجامعة العربية، اغاني مجد قديم مشترك تدعيه، فما كانت لتألو جهداً في تحدقها بالافق لترى طلائع مجد جديد مقبل يجمع ويؤلف فيما بين العناصر جميعها، سواء كانت تختلف جنسياً ام دينياً ام طائفياً . وكان عمله في سبيل هذه الفكرة مستمراً مخلصاً، وحسبنا وحسب كل لبناني من هذه المجاهدة ومن هذا الاخلاص لنعترف لصاحبها بالوقار والاحترام، ولا سيما بعد ان سجاه الموت بجلالته .

هذه هي الروح الظريفة المتهكمة الناعمة البسيطة الوديعة الصريحة البعيدة الغور في التأمل والتفكير الجامعة العلم والاطلاع الوافر، والدقة في البحث، الى ثقافة انسانية واسعة حية، المخلصة الحب للبنان عربي، هذه هي الروح التي تراءت لي اثناء مرافقتي للامين في رحلاته، فكنت ازداد بها معرفة ولها حباً بقدر ما كنت اتجاوز معها توغلاً في قلب لبنان . وكنت وانا جالس الى طاولتي، سجين غرفتي، اماشي بالذكر والخيال الريحاني السائح فاتسلق معه مقربات جبالنا واجتاز واياه قرانا اللبنانية واشترك معه في حديثه الى اللبنانيين واللبنانيات واجلس الى جانبه مستنداً الى جذوع سندياناتنا واشجار غاباتنا . فاشعل اذ ذاك غليومي معه وارسل دخانه عمداً وحلقات تتصاعد في الفضاء . وكنت اتبعها نظري واراها رمزاً مادياً لكل هذا الذي كان يولده حديثه عن لبنان طبيعة وشعباً في عالم اللاوعي عندي من صور كالحة تتتابع وتتسلسل بعضها عن بعض بشكل مبهم غامض معقد، يعيي العقل ضبطها وايضاحها له في حياتها الوجدانية الغنية . وجل ما يسعني القول فيها هو انني كنت اشعر في تتبعي لها بشيء من الانزعاج يفسد علي ارتياحي الى قراءة الكتاب في بعض فصوله . تذكرت، اثناء مطالعتي هذا الكتاب كتاب موريس باريس (Enquête au pays du Levant (Maurice Barrès اذ ان كلا المؤلفين حاول ان ينفذ الى صميم لبنان في ماضيها وحاضرها مع فارق مهم، اللهم، وهو ان اديبنا اللبناني فوق الاديب الفرنسي تأهلاً وجدارة بالتولج في « قلب لبنان » لما ينتعش به من لبنانية حية ميلاً وتربية وطبعاً . ومهما يكن من امر فان هذه المقارنة دفعتني الا اطلب من الامين ما قد اطلب من الاختصاصي الفني من بحث دقيق واضح في امكانيات لبنان من حيث الاقتصاد الطبيعي والعمراني ومن حيث التطور الفكري الملائم لفطرته . فكل هذا كامن في وحدة الحياة التي استوعبها الامين واداها لنا بكل مطاويها، كما ان نقطة الماء المعينة المحدودة كامنة في سيل تيار النهر الجارف .

الا ان هناك ناحية لم اكن لارضى من الريحاني تغافله عنها الا وهي مكانة الدين المسيحي من «قلب لبنان» . وكلامي هذا لا لأستنكر منه إلحاده وتحامله المكرر على التقاليد الدينية المسيحية في لبنان ولو كان يجرح بذلك عواطف كل مسيحي لبناني . فمن الناحية الدينية كل حر بآرائه وكل يستطيع ان يجاهر بها مخلصاً بعد ان نبذته طائفته ورفض هو سلطانها، مع اننا نستطيع ان نتبين في كتاب الريحاني الأدلة القاطعة على ان الروح المسيحية جبلته جبلاً في اقصى فطرته وعلى انه مسيحي يجهل نفسه او ينكر دخيلة نفسه بكلامه . فلن اتعرض لهذا البحث اذاً وقد اخذت نفسي بان ابرز ما فاز به الكتاب من قيمة انسانية ادبية، وانا اشعر بما نشعر به جميعاً نحن الشرقيين وهو اننا في حاجة ماسة الى الاقبال على الموضوعات الادبية والعلمية من ناحية انسانية محضة مجردة عن كل هدف وغاية . شرطاً الا يمنعنا هذا التوجيه الذي نلزم به انفسنا عن ان تكون نظرتنا الى موضوع بحثنا شاملة وافية . ولكان يجدر بالامين ليستوعب تكوين لبناننا ونشأته حتى من ناحية القومية الجنسية، ان يتذكر او بالاحرى ان يذكر (وعهدنا بذاكرته خير من ان نظنها تنسى ما سجله التاريخ) في كتابه وادي قاديشا ومغاورها وعملها في الشعب اللبناني . ولو فعل، لكانت نظرته الى لبنان كاملة حقاً لا يعيبها نقص قط، ولكانت نظرة سديدة انسانية شاملة مجردة عن كل هدف وغاية ولكان نفذ حقاً الى صميم « قلب لبنان » .

دمشق — الاب فريد جبر اللعازاري

مدير الدروس العربية في مدرسة الآباء اللعازاريين

جولة الأديب في شهر

المستحمات

تلقينا بالبريد الجوي من الارجنتين هذه المساجلة الطريفة :

شاعر مجهول نعرف انه في البرازيل ولكن لا نعرف من هو بعث الينا بكتاب ضمنه ابياتاً من قصيدة عنوانها (المتحمّمات) يتحدى بها الشاعر جورج صيدح ويطلب منه معارضتها. وما كنا نعتقد بأن هناك شاعراً يتجرأ على اقتحام شاعرنا ومنازلته .

قال الشاعر المجهول في كتابه : ساقتني الظروف منذ عشر سنوات او تزيد الى شواطىء كوبوكابانا في ريو جانيرو ورأيت المتحممات يلعبن ، او تلعب بهن الامواج في بحرها فنظمت فيهن قصيدة ارسلت اليكم قطعة منها لكي تنشروها وتقولوا لشاعركم صيدح الذي تفاخرون به باني اتحداه واطلب منه معارضتها .. اذا استطاع !

هذا ما قاله الشاعر المجهول في كتابه . واما الابيات التي اشار اليها فهي هذه :

يخلعن عنهن الدمقس كأنما   في الروض فتّقت الورود كمامها
وبرحن، قد جُرّدن، الا فضلة   حجب الحياء عن الهوى احرامها
متمعجات في مسابحهـا على   متمعجات ضيّعت احلامهـا
ملك الهياج زمامها فتواثبت   غضبى كآساد طرقت اكامها
يلعبن كالاطفال فوق ظهورها   مرحاً وتبدي غيظها وعرامها
ويغرن تحت بطونها حتى اذا   ما ردنَ اسفلها علون اكامهـا
في متن كل حرونة حردانة   ترغي مروّضة تدير لجامهـا
يسمعن في تهديدها ووعيدها   صوت النذير ولا يعين كلامها
في حين تخشى النفس غائلة الردى   وتخاف ان تلقى هناك حمامهـا

وكان شاعرنا صيدح موجوداً في مونتفيدايو . وكان البحر هناك قد اشرع ابوابه للمستحمات عند شواطىء كارسكو . فأبى الا ان يقبل التحدي وأبى الا ان يكون الظافر . وهذه عصاوته المستحمات :

افدي الحمائم باكرت حمّامهـا   في شاطىء فرش العيون امامها
مستعرض فوق الرمال هيامنا   مستعرض فوق المياه هيامهـا
الكاسيات العاريات تؤمه   بغلائل، ما غلفت اجسامهـا
تركت الى عبث النسيم شفوفها   فنضا النسيم عن النجوم غمامها
تغري ولا تعطي الذي تغري به   لو انصفت ما نصفت احرامها
ضربت نواظرنا نطاقاً حولها   ورمت على الزغب المريب سهامها
آلت تكون وشاحها وحزامها
او ان تقدّ وشاحها وحزامها .
يا موكب الطوفان ما بال الظبا   نصبت على مرأى الاسود خيامها؟
الفت جوار الصيد في سرحاتها   متحديات في الهوى ضرغـامها
وتمرغت في الرمل ، تخدع شهوة   لجت، ولم تقض المهود مرامها . .
تمتص منه وهجـه وضرامه   وتبث فيه شوقها وضرامها .
البحر ناداها وقلقل في الحصى   متقدماً يتعمد استقدامهـا
فحنت عليه وارتمت في حضنه   من بعدما كشفت له هندامها
دخلت على الامواج واجفة الخطى   بعد التردد ثبتت اقدامهـا
وتوغلت في اللج حتى ضمهـا   ضم الهواعم أطبقت اكمامهـا
لم ندر — اقعده الجوى واقامه   ام تلك اقعدها الجوى واقامها؟
ام ثارت الاسماك يحفز بعضها   بعضاً لصد الهاتكات ذمامها
تأبى الحياة مع الحسان، وما درت   ان الحيـاة باسرها قدّامهـا
البحر غـازلها وفضض موجه   كُرمى لها، كرمى لعينك يامها!
الوى عليها ، لا يمل عناقهـا   واطال في ترجيحها فاضامهـا
نرتاع ان غاصت، وغابت اذرع   كنا نراعي في العباب صدامها
واذا باجنحة الملائك صفقت   وارتدت الامواج تحني هامها
متغرغرات ، طيبت اشداقها   بندى الجسوم الناضحات خزامها
ملتونات ، تستعير من الضحى   اشراقه ، ومن الغيوم قتامها
متلاطمات ، وهي في بحبوحة   متوالدات مزقت ارحامهـا
لولا الرياح الهوج تسعى بينهـا   سعي الوشاة لسالمت اقوامها
ولما تناثر لحمها عن عظمهـا   فوق الصخور فأشمتت لوامها
جُنت بحسن السابحات فقهقهت   بعد الهدير ، ورخمت انغامهـا
حتى اذا عادت فرائسها الى   كنف الشواطىء، ودّعت احلامها
وتسابقت نحو المحيط ، كتائباً   رجراجة ، شنت عليه عُرامها
ابداً تكر وتستجيش فلولها   ابداً تفر وتستعيد نظامها !
رعناء ، كالنفس الحطيمة، همّها   بعد الشبيبة ان تلم حطامهـا
يا من تحداني فـايقظ فتنة   للشعر في نفسي ، وددت منامها
ما كان ضرك لو رفقت بمتعب   في عزلة القت عليه سلامها ؟
الذكريات على الشواطىء جمة   سأفض ان سمح الزمان ختامها
واغوص في بحر اللآلىء ، تاركاً   لمناظري اصدافها ورمامها .
عندي وربك للقريض مناجم   تغنيك، لو ملكت يداك رغامها!

بونس ايرس — الارجنتين

جورج صيدح

عجباً لقومي

دعت الحكومة السورية الشاعر ايليا ابي ماضي لزيارة دمشق . واقام له وزير المعارف معالي محسن بك البرازي حفلة تكريمية كبرى ، فكّر معاليه في جعلها مهرجاناً ادبياً فوجه لذلك الدعوة الى بعض كبار الادباء ومنهم منشىء الاديب الذي تلقى دعوة برقية باسم وزير المعارف السورية ثم دعوة هاتفية من معالي محسن بك البرازي بصفة شخصية . ثم عدل معاليه عن فكرة اقامة المهرجان والغيت معظم الدعوات ومنها دعوتنا وكان ان اكتفت الحكومة السورية باقامة حفلة تكريمية كبرى للشاعر .

وقد لاقى ابو ماضي من فخامة رئيس الجمهورية السورية شكري بك القوتلي ومن الحكومة السورية الرعاية والتقدير واقيمت على شرفه عدة حفلات تكريمية رسمية . وننشر فيما يلي القصيدة الرائعة التي القاها الشاعر في الحفلة التكريمية التي اقامها له معالي وزير المعارف :

حي الشآم مهنداً وكتابا ... والغوطة الخضراء والمحرابا
ليست قبابا ما رأيت وانما ... عزم تمرد فاستطال قبابا
فالثم بروحك ارضها تلثم عصوراً ... للعلى سكنت حصى وترابا
واهبط على بردى يصفق ضاحكاً ... يستعطف التلعات والاعشابا
روح اطل من السماء عشية ... فرأى الجمال هنا فحن فذابا
وصفا وشفّ فاوشكت ضفاته ... تنساب من وجه به منسابا
بل ادمع حور الجنان ذرفتها ... شوقاً ولم تملك لهن ايابا
بردى ذكرتك للعطاشى فارتووا ... وبني الهوى فترشفوك رضابا
مرت بك الادهار لم تخبث ولم ... تفسد وكم خبث الزمان وطابا

●

بأبي وامي في العراء موسد ... بعث الحياة مطامعاً ورغابا
لما ثوى في ميسلون ترنحت ... هضباتها وتنفست اطيابا
واتى النجوم حديثه فتهافتت ... لتقوم حراساً له حجابا
ما كان يوسف واحداً بل موكباً ... للنور غلغل في الشموس فغابا
هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى ... لا يرى في جلق الاغرابا
واذا نبا العيش الكريم بماجد ... حر رأى الموت الكريم صوابا
اني لازهى بالفتى واحبه ... يهوى الحياة مشقة وصعابا
ويضوع عطراً كلما شدّ الاسى ... بيديه يعرك قلبه الوثابا
ويسيل ماء ان حواه فدفد ... واذا طواه الليل شع شهابا
واذا العواصف حجبت وجه السما ... جدل العواصف للسما اسبابا
واذا تقوض صرح آمال بنى ... املاً جديداً من رجاء خابا
فابن الكواكب كل افق افقه ... وابن الضراغم ليس يعدم غابا

عجباً لقومي والعدو ببابهم ... كيف استطابوا اللهو والالعابا
وتخاذلت اسيافهم عن سحقه ... في حين كان النصر منهم قابا
تركوا الحسام الى الكلام تعللا ... يا سيف ليتك ما وجدت قرابا
دنياك يا وطن العروبة غابة ... حشدت عليك اراقماً وذئابا
فالبس لها ماء الحديد مطارفاً ... واجعل لسانك مخلباً او نابا
لاشرع في الغابات الاشرعها ... فدع الكلام شكاية وعتابا
هذي هي الدنيا التي احببتها ... وسقيت غيرك حبها اكوابا
وضحكت مع احلامها وبكيت ... آلامها ، وجرعت معها الصابا
واضل روحك في السرى واظلها ... ما خلته ماء فكان سرابا
ونظرت والاوصاب تنهش قلبها ... فرأيت كل لذاذة اوصابا
شاء الظلوم خرابها فاذا الورى ... لا يبصرون سوى نهاه خرابا
دنيا تألق امسها في يومها ... فاستجمع الانساب والاحسابا
وسرى سناء الوحي من آفاقها ... يغشى العصور ويغمر الاحقابا
الحق ما رفعت به جدرانها ... والخير ما زانت به الابوابا
فاستنطق التاريخ هل في سفره ... مجداً يضاهي مجدها الخلابا ؟
شابت حضارات ، ودالت وانطوت ... امم ومجد امية ما شابا
الامس كان لها وان لها غداً ... تتلفت الدنيا له اعجابا
غنيت من قبل المحولة والعرا ... أفلا تغني الروضة المخصابا
عطفت لياليها عليك بشاشة ... فأنس الليالي غربة وعذابا
وانشر جناحك فالفضاء منور ... واملأ كؤوسك قد وجدت شرابا
فلشدو مثلك كونت ، ولمثلها ... خلق الاله البلبل المطرابا

●

ليت الرياض تعيرني الوانها ... لاصوغ منها للرئيس خطابا
واقول اني عاجز عن شكره ... عجز الانامل ان لم تلم عبابا
اشكو الى نفسي العياء فتشتكي ... مثلي وتصمت لا تحير جوابا
فلقد رأيت البحر حين رأيته ... فوقفت مضطرب الرؤى هيابا
أعميد سوريا وكاشف ضرها ... خلقت يداك من الشيوخ شبابا
وبلابل كانت تئن سجينة ... اطلقتها واطرتها اسرابا
يا صاحب الخلق المصفى كالندى ... لو لم تكن بشراً لكنت سحابا
امل الشبيبة في يديك وديعة ... فارفع لها الاخلاق والآدابا
فالجهل انى كان فهو عقوبة ... والعلم انى كان ، كان ثوابا
يا ويح نفسي كم تطاردني النوى ... وتهد مني القلب والاعصابا
ودعت خلف البحر امس احبة ... وغداً اودع هاهنا احبابا

ايليا ابي ماضي



٢٨ كانون الاول ١٩٤٨ – قتل دولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس مجلس الوزراء المصري غيلة بيد احد طلاب كلية الطب البيطري المنتمين الى حزب الاخوان المسلمين .

٢٩ – جرت تظاهرات في بغداد تطالب بان يستأنف الجيش العراقي القتال في فلسطين .

– صدر مرسوم ملكي بتعيين ابراهيم عبد الهادي باشا رئيساً لمجلس الوزراء المصري .

– نفت المصادر الموثوق بها النبأ القائل بان القوات اليهودية دخلت الاراضي المصرية .

٣١ – اجتمع عمرو باشا سفير مصر بلندن بالمستر بيفن لبحث العلاقات بين مصر وبريطانيا .

٣ كانون الثاني ١٩٤٩ – انذرت بريطانيا اميركا بانها سترفع الحظر عن بيع الاسلحة للعرب اذا استمر اليهود على عدوانهم المتواصل متحدين بذلك هيئة الامم .

– توقف اطلاق النار بين الهند والباكستان .

٤ – استؤنف القتال على الجبهة العراقية .

– انذرت الولايات المتحدة اسرائيل المزعومة بوجوب سحب قواتها من الاراضي المصرية .

٥ – قبلت مصر رسمياً دعوة الهند ، للاشتراك في المؤتمر الاسيوي الذي سيعقد في دلهي الجديدة لبحث القضية الاندونيسية .

٦ – قدمت الوزارة العراقية برئاسة الباجهجي استقالتها .

وكلف سمو الوصي نوري باشا السعيد تأليف الوزارة الجديدة .

– تقرر عقد المؤتمر الاسيوي لبحث المسألة الاندونيسية في ٢٠ الجاري .

– اشترط حزب الوفد المصري لدخوله الوزارة حل مجلس النواب الحالي واجراء انتخابات قومية باشراف حكومة حيادية .

– كررت الملكة جوليانا عزم هولندا على انشاء حكومة اندونيسية داخل نطاق الوحدة الهولندية .

٧ – قبل المصريون وقف اطلاق النار في النقب ، وقد دعا المستر بانش الطرفين الى اجراء مفاوضات الصلح في جزيرة رودس .

– استقال المستر مارشال وزير الخارجية الاميركية وعين مكانه المستر دين اتشيسون .

– اعلنت وزارة الخارجية البريطانية ان الجيوش البريطانية سترسل الى ميناء العقبة بناء على طلب حكومة شرقي الاردن .

١٠ – رفض اليهود استلام الاحتجاج البريطاني على اسقاطهم خمس طائرات بريطانية .

– قدمت الى الكونغرس ميزانية الولايات المتحدة وهي اضخم ميزانية عرفتها اذ تتجاوز الـ ٤١ مليارا من الدولارات .

١٢ – وصل الوفدان المصري واليهودي الى رودس للبدء بمشاورات الهدنة في فلسطين .

– تنشط حرب العصابات باندونيسيا نشاطاً ظاهراً .

– اجل مجلس الامن شكوى اسرائيل على بريطانيا بصدد حشد قواتها على حدود فلسطين براً وبحراً .

– اعلنت الحكومة البريطانية ان هيئة الامم تفقد شيئاً فشيئاً سيطرتها على الحوادث الجارية في فلسطين .

١٣ – وافقت الوزارة البريطانية المستر بيفن على السياسة التي يتبعها في فلسطين .

– حاول شاب من جمعية الاخوان المسلمين نسف محكمة الاستئناف المصرية لاتلاف وثائق التحقيق باغتيال النقراشي باشا .

– الغت بريطانيا طيران الاستكشاف فوق منطقة الحدود الفلسطينية المصرية .

١٤ – استقالت الوزارة التركية .

١٥ – قامت في افريقيا الجنوبية ثورة طائفية بين الهنود وقبائل الزولو قتل فيها ٥٠٠ شخص وجرح اكثر من ٤٠٠ .

– حلت القوات الاميركية محل قوات الاحتلال البريطانية في اليابان .

١٧ – تألفت الوزارة التركية الجديدة برئاسة شمس الدين غونالطاي .

– اذاع دولة ابراهيم عبد الهادي بياناً على الشعب المصري يدعوهم للاكتتاب في القرض الوطني للانفاق على القوات العسكرية في فلسطين .

١٨ – رفضت روسيا التوسط في الصلح بين القوات الشيوعية والقوات الحكومية بالصين .

– عين المندوب التركي رئيساً للجنة التوفيق التي ستخلف الوسيط الدولي في مهمته .

١٩ – اعلنت فرنسا انها ستعترف باسرائيل اذا نجحت المفاوضات الدائرة بينها في سبيل تأمين مصالح فرنسا في فلسطين .

– قررت حكومة المرشال شان كاي شك الصينية طلب الصلح من الشيوعيين .

– عرضت بريطانيا مساعدتها على مصر اذا فشلت محادثاتها برودس مع اليهود .

– عاد الهدوء لافريقيا الجنوبية .

٢٠ – قرر المصرف الدولي منح اسرائيل قرضاً مقداره ١٠٠ مليون دولار .

– الف سوفوليس الوزارة اليونانية .

– عقد المؤتمر الاسيوي بالهند جلسته الافتتاحية لدرس قضية اندونيسيا .

٢١ – غادر المارشال شان كاي شك الصين الى جزيرة فرموزا حيث يقيم بالمنفى اختياراً .

٢٢ – سقطت مدينة بيبنغ بايدي الشيوعيين الصينيين .

٢٤ – اعترفت فرنسا بدولة اسرائيل واقعياً .

– وصلت لجنة التوفيق الى فلسطين .

– لم يجب الشيوعيين على عروض الصلح وقد اصبحوا على بعد ٤٠ ميلاً عن العاصمة .

٢٥ – قدم الى رئيس المجلس النيابي اللبناني اقتراحاً من النواب : سامي الصلح ، كمال جنبلاط ، نصوح آغا الفضل ، سليمان العلي يطلبون احالة رياض الصلح رئيس الوزارة اللبنانية الى المحاكمة بتهمة التقصير والفشل في القضية الفلسطينية استناداً الى المادة ٧١ و٧٢ من الدستور .

٢٦ – اجتمع مجلس العموم البريطاني لمناقشة السياسة البريطانية في فلسطين والشرق الاوسط . وقد القى المستر بيفن بياناً مسهباً عن الحالة جاء فيه ان الحكومة البريطانية لا تستطيع اذا استؤنف القتال في فلسطين ان تقف مكتوفة اليدين ، فان منطقة الشرق الاوسط ذات اهمية بالغة لسلامة الحلف الغربي والدفاع عنه .

– ألقى مندوب مصر في مجلس الامن كلمة ايد فيها حق اندونيسيا بالاستقلال وطالب بجلاء القوات الهولندية عنها ضماناً لحرية الانتخابات المقترحة .

٢٧ – قررت لجنة الحربية في الكونغرس عقد اجتماع سري لبحث وسائل الدفاع .

مطابع صادر ريحاني – تلفون ٦٨ – ٦٢